

زمن الحصاد

.. تحتشد الأرض في بلادنا زمن الصيف في لبوسها الزاهي تحت أشعة الشمس الذهبية احتفاء بزمن الحصاد في مدهذا الإمتداد .. وبجيء - تموز - هذا العام محملاً بكل الخصب والعطاء الوفير .. حيث تتشابك السواعد والحصادات والجرارات في دأب محموم وحميمي تنفث نفايات السنايل وتذرع السهول في انبساطها وانطوائها .. لتفجير القمح من أكمامه لتتحول الدور والمطامير والمخازن والأكياس بطانا بعد خوائها .. ومن القمح يكون الريح ويفرح الناس بعطاء ربك ... وتتداعى أيام البهجة في بلادنا وتيرة مكثفة ونسق نشيط حيث تنزع المدن والقرى من واجبتها ترهلها وانكفاء ألوانها لتزدان بأبيض الحلل وتتجمل بياضات وأعلام التائق .. ويكون الاحتفاء بالحصاد هو الشعار الذي يختزل ضمناً كل فعاليات الفرح .. حصاداً يعمر الأرض في شتى المجالات لتتشبي فضاءات قرانا ومدننا بأهازيج المهرجانات المحلية والوطنية فترجع شوارعنا ، مسارحنا - الماثلة برمزية الكبرياء التاريخي - صدى تلك الأصوات الصادرة : منشدة أو عازفة أو مطربة .. المعتملة بكل حيوة التجليات الجمالية التي تفرزها تلك اللقاءات الجماهيرية في لبالي القمر بين المبدعين وكل الطالعين من زمن الكدح ينشدون الإنتشاء في جبور وانبهار وانبساط مع كل إفرازات العطاء الفني الذي يستقطب كل ذاك الزخم من الضامين للإبداع الأصيل ..

.. وضمن هذا الفيض من تجليات الفرح تنبجس كل الإرادات الخلاقة لتنتج من كياناتها المحلية لون تميزها وتنتقي حلتها المتفردة مستلهمة اختياراتها بما تنطوي عليه من موروث تقاليدها وما

تخزنه الذاكرة الشعبية وتحفظه من سني خصبها ..
.. بالأمس في هذا الوطن كانت فعاليات الحصاد تقليدية .
ولازالت بعض جغرافياتنا تؤمن ذلك الفعل . فكانت تُنحر الذبائح
وتُنصب الولائم لجسوع الأهالي المتطوعين في "العرافة" .. وتُطلق
الرغاريد وتُنشد الماويل ملتحة في أصواتها بصير المناجل تقضم
أصول السنابل .. ويظل موسم الحصاد هو افتتاحية كل مظاهر الفرح
المتعددة .. فتبعا لفرز المحصول تُعلن مواعيد الزواج والإحتفالات
العشائرية - "الزردة" - وليالي البهجة المتعددة أغراضها وأدبياتها ..

.. واليوم تأخذ أيام الفرح أبعادها الأشمل في امتدادها الزماني
والمكاني ولم تعد هناك مساحة خضراء بمنأى عن التعبير عن
بهجتها .. وصار للفرح بنياته الحقيقية والمتأصلة والمتألقة بكثير من
الحبكة والتنظيم والتوظيف الأمين لكل مقدرات الوطن .. وكل
عنصره التي تؤلف جبروته وشخصيته وتفردته في محيطه ..

والإبحاف .. في سلياته ، إذ تحتفي بالأمس القريب بمؤلفات
كتابها في استقبال واستقراء أمين لأدبياتهم .. فأنها تظل منخرطة
أو شاهدة بلون ثبات وشموخ جبالها على كل تجل فاعل وإيجابي في
شئى دروب الكدح والإبداع .. تنشد في رحاب ذلك مع كل
العاملين بالفكر والساعد حصادا وفيرا .. ليتحوّل تموز الحصب .. من
وقفة محدّدة في الزمن إلى تموز الزمن كله ليكون الحصاد بعدد أيام
البناء والتغيير في هذا الوطن .. لنورخ دائما بافتتاحية القمح حتى
تتسع دائرة الجمالية والإمّياز .. ونظل نحبي ونبدع ونحبر صحائفنا
بمذاق كل حبة تدرّها هذه الأرض .. ونطمح ما اذخرناه في أتربتنا
لنؤسس للزمن القادم .. ليكون هناك دائما جديد تحت الشمس !!! ..
- التحرير -

من الطبيعة إلى الثقافة

قراءات في جدل الثقافة والمجتمع

بقلم : لطفي الوسلاتي

مقدمة :

إنّ الإنسان كينونة تاريخية وحراك اجتماعي ، فهو يعيش ضمن أبعاد متعدّدة ، لا تدخل تحت حصر ، يتحرك الإنسان في المكان محاولا التكيف مع البيئة المادية والاجتماعية لضمان بقائه واستمرار نوعه وتلبية حاجياته البيولوجية ، وهو يتحرك في الزمان باعتبار أنّ الإنسان هو الموجود الوحيد من بين سائر الكائنات الذي يملك عقلا يؤهله للإنتاج النظري ، أي إنتاج ثقافة ما والإنسان على هذا الأساس يملك تاريخا ، أي موروثا ثقافيا ، يستمدّ منه أسس فقه المستقبل ، والذي يطمح الإنسان جاهدا إلى بناء صرحه كما يمكنه أي هذا الموروث الثقافي . من إيجاد الحلول الواقعية للإشكاليات سواء الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الثقافية ، والتي يفرضها الواقع قرضا ، نظرا للتحوّلات وجملة التناقضات التي تعيشها الجماعات البشرية ، في التاريخ وعبر حقب زمنية متباينة المراحل ، والإنسان بعد ذلك هو الموجود الوحيد الذي يرفض وجوده على حدّ تفسير ألبار كامو ALBERT CAMUS والإنسان يرفض وجوده بمعنى أنّه لا يرضى بواقعه كمحض واقع أو كمعطى طبيعي ، بل الإنسان عبر التاريخ من خلال كلّ التحوّلات التي قطعها قد عبر من خلال التعابير الثقافية عن سيطرته على الطبيعة والواقع رغم أنّ هذه السيطرة قد اتخذت شكلين متمايزين هما : سيطرة وهمية وقد مثل قطبيها كلّ من السحر والأسطورة ، وأمّا السيطرة الفعلية فنجد العلم والتقنية .

نرى من الضروري قبل الشروع في تناول إشكالية جدل الثقافة والمجتمع أن نقف على معنى مصطلحي الطبيعة والثقافة فما الطبيعة وما الثقافة ؟

أولا الطبيعة :

لا نقصد بالطبيعة في الأنثروبولوجيا الثقافية الطبيعة المادية . أي المعطى الطبيعي والمادي وإنما المقصود الطبيعة بالنسبة للموجود البشري أي بمعنى أكثر دقة الطبيعة بالنسبة للإنسان وتتجلى - أي هذه الطبيعة - في كل ما هو بيولوجي ومتوارث أو ما يعبر عنه بجملة الوظائف الفيزيولوجية التي ركب عليها الإنسان ، فالطبيعة إن أردنا القول : هي الجانب الجبري والفطري في الإنسان ، فالإنسان مثلا لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يستأصل الوظيفة الهضمية التي تقوم بها المعدة ... أو الوظيفة التنفسية الخ ... فالطبيعة إذن هي الجانب البيولوجي والمادي لدى الإنسان .

ثانيا . الثقافة :

هي كل ما يميز الإنسان عن الحيوان . ومن المنظور الأنثروبولوجي هي كل إضافة إلى الطبيعة . الطبيعة بالنسبة للإنسان - مجسمة في جملة الأنماط السلوكية وكل أشكال التعبيرات الثقافية التي أنتجها الإنسان في تاريخه الطويل والتي تخضع إلى قواعد مضبوطة ، فالثقافة هي كل ما هو مكتسب وقابل للنقل والتواصل عبر الأجيال .

<http://Archivebeta.Sakhyit.com>

لاشك وأن الثقافة " قد حظيت بعدة تعريفات ولعل أشهرها على الإطلاق تعريف ادوارد تيلور الذي نشر عام 1971 أهم كتاب في الموضوع وهو " الثقافة البدائية " ويعرف تيلور الثقافة كالآتي : " هذا الكل - أي الثقافة - المعقد الذي يتضمن المعرفة والإعتقاد ، والفن والأخلاق والعادات وكل القدرات والأعراف الأخرى التي اكتسبها الإنسان كفرد في المجتمع " ينتج عن ذلك أن أفراد المجتمع يتبادلون فيما بينهم أنماطا سلوكية معينة ، مما يدخل حركية وتطورا على البنية الثقافية التي تؤثر بدورها على البنية الاجتماعية ككل .

ثم إنه لا بد من رفع بعض الشبهات التي تحوم حول القول بوجود مجتمعات بدون ثقافة وهي " المجتمعات البدائية " .

وقد ركز ليفي برونيل في كتابه " العقلية البدائية " على هذه النقطة إلا أن الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن لكل

مجموعة بشرية ثقافة ما : فحيثما وجد الإنسان توجد الثقافة . ونستطيع أن نبرهن على ذلك انطلاقاً من التعبير الثقافي التالي : الفن . فقد استعمل الإنسان عبر التاريخ الفن كأداة تعبير عن حاجة نفسية وبيولوجية في نفس الوقت وقد وجدت في بعض الكهوف رسومات على الجدران لبعض الحيوانات الغائبة التي كانت تهدد الإنسان وقد أصيبت برماح الإنسان الأول . فمن هذه الرسومات الفنية قد عبر الإنسان منذ القديم عن سيطرته على الطبيعة حتى وإن كانت الأدوات المستعملة بدائية ومتخلفة إلا أن عقلية لم تكن كذلك ، بل كان الإنسان ملتصقا بالطبيعة مما جعله يؤلفها في بعض الأحيان ويضفي عليها طابعاً مقدساً .

إلا أن ما نريد أن نؤكد عليه ونريد الوصول إليه ليس تعريفاً للثقافة يكون عاماً شاملاً لا يقبل النقاش أو التفنيد ، بل كل ما نريد الوصول إليه هو الوقوف على مكونات الثقافة باعتبارها تجسيدا لهوية IDENTITE مجموعة بشرية معينة لها مميزات الحضارية والتاريخية مهما كانت هذه الثقافة فلا يمكن القول بوجود " ثقافة " تقدمية " وأخرى " رجعية " فالثقافة لها ميزاتها الخاصة ولكل شعب أو أمة ثقافة ما .

إن الثقافة لا تلهم إلا باعتبارها مظهراً للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله ، فرداً أو جماعة العالم ويفهمه ويجعله شفافاً أي قابلاً للتمثل في الذهن . وبالثقافة يتكوّن لدى الفرد وعياً ، وهذا الوعي في علاقة جدلية بالواقع الموضوعي ومن ثمة تنشأ الجدلية الاجتماعية والتاريخية بين الوعي والوجود بين الذات والموضوع ، وهذا الجدل هو علة الحركة والتطور داخل المجتمعات البشرية (1) .

التعابير الثقافية والإيديولوجيا :

قبل أن نتناول علاقة التعابير الثقافية بالإيديولوجيا ، نرى من الضروري أن نقف على معنى الإيديولوجيا ، فماذا تمثل هذه الكلمة ؟

إن الإيديولوجيا هي منظومة الأفكار والإبداعات ومجموعة النظريات الاجتماعية سواء منها الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية والتي تشكل بمجموعها نظاماً متكاملًا ، وتعبّر عن المصالح الحيوية لطبقة أو طبقات معينة وعلى هذا الأساس فإن الإيديولوجيا ليست ثمرة لنشاط فكري وعقلي لهذه الطبقة أو تلك فحسب ،

ولكنها إحدى الوسائل التي تلعب دوراً هاماً في تشكيل الوعي لدى الناس الذين ينتمون إلى الطبقة التي تمثلها هذه الإيديولوجيا .

وهذا الوعي الذي تكونه الإيديولوجيا لدى الناس قد يكون وعياً مقنعاً ومقلوباً يسعى إلى تزوير وقلب هذا الواقع كأن تبرّر إيديولوجيا طبقة ما الإستغلال الذي يعاني منه الناس وقد تكون الإيديولوجيا وعياً مطابقاً كان يكشف بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن تناقض المصالح الإجتماعية وبالتالي فضح قوى الإستغلال .

فاشكالية العلاقة بين التعبيرات الثقافية - الأسطورة ، الفن ، الفلسفة ، الدين ، العلم ، الإيديولوجيا ... الخ .. وبين الإيديولوجيا تبدو واضحة . ولنضرب مثلاً حول هذه الإشكالية انطلاقاً من الفن كتعبير يكتسح مساحات كبرى في وعي الناس وما يبدهه الفنانون على مرّ التاريخ .



ما الفن ؟

شكل من أشكال الوعي الإجتماعي يعكس بوسائل الصورة والرسمات الفنية فكر الناس ومشاعرهم تجاه الحياة والطبيعة والواقع الذي يتحركون فيه (الوعي الإجتماعي وقوانين تطوره) .

وبما أنّ الإيديولوجيا - أو منظومة الأفكار - تعكس مصالح طبقة معينة في المجتمع فقد تستغلّ هذه الطبقة الفن مثلاً وتوظفه لخدمة مصالحها الحيوية ومن ثمة لم يعد الفن وعياً حقيقياً للتاريخ والواقع بل يصبح الفن وعياً مزيفاً ومقلوباً نظراً لاحتوائه من قبل طبقة معينة لتكرسه لتبرير الواقع وتقنيع التناقضات في المجتمع الواحد .

فاذا وقع احتواء إيديولوجي للفن - كتعبير ثقافي - من طرف طبقة معينة لم تعد للفن قوته الإبداعية التي تكشف عن واقع بشكل حقيقي بل يصبح الفن يعبر عن مصالح مجموعة أو نخبة معينة من المجتمع وليس كلّ المجتمع ومن ثمة تصبح مقولة " الفن للفن " أو " العلم للعلم " مقولة زائفة ذلك أنّه غالباً ما نجد الفنان أو الفيلسوف أو العالم يدافع عن مواقف معينة ومن ثمة فهو يكرّس

إيديولوجيا ما في أعماله سواء الفنية أو العلمية أو الفلسفية .

الفن الحقيقي هو الذي يبقى مرتبطا ارتباطا وثيقا بروح العصر ، ومعبرا بشكل دقيق دون هروب عن أهم مشكلات الواقع أما الفن المزيف أو المقتنع فهو الفن الذي لا يعبر عن الواقع . واقع الناس وما يعيشونه في حياتهم اليومية بل يبقى يحلق ويحوم في السماء ولا ينظر إلى الأرض . فالفنان المزيف هو الذي ينسلخ عن التاريخ أما الفنان الحقيقي أو الوظيفي *Fonctionnaire* فهو الذي يعيش تاريخه ويعبر عن لحظته التاريخية بشكل عميق لا مسطح .

نستطيع أن نعمم اشكالية العلاقات بين الفن والايديولوجيا على بقية التعبيرات الثقافية ولكن اكتفينا بالفن كمثال واقعي نلمس أهميته اليوم .

ولكن لا بد من التأكيد في خط معاكس على أن التعبيرات الثقافية قد تقع عليها عمليات الإحتواء الايديولوجي فلا تؤتي أكلها في توعية الفرد والمجتمع ولكن قد تصمد هذه التعبيرات الثقافية أمام كل أشكال الإحتواءات الايديولوجية وتساهم بقسط كبير في تحرير المجتمع من كل أشكال الإستغلال والتغريب ومن ثمة يتحرر المجتمع من هذا الإستغلال الثقافي وعلى هذا الأساس تبرز العلاقة الجدلية بين التعبيرات الثقافية والحرية فثما هي طبيعة هذه العلاقة ؟

كما أسلفنا القول في مسألة . يتابع الثقافة ، وعلاقة الإنسان بالطبيعة . نقول : إن الإنسان منذ البدء قد صارع ولا يزال القوى الطبيعية ، وعن هذا الصراع والتحدّي اللذين عايشهما الإنسان في التاريخ ، انبثقت التعبيرات كشكل من أشكال الوعي والذكاء البشري في السيطرة على هذه القوى الطبيعية التي تهدّد وجوده ولم يكن الإنسان الأوّل في بدء التاريخ البشري قد نحت الحجارة وصقلها عبثا ولها بل كان لرغبة وتجسيّد الحاجة " وهي السيطرة " على الطبيعة فعندما يتوصّل الإنسان الأوّل إلى صنع السّلاح انطلاقا من الحجارة المصقولة أو المنحوتة . عصر الحجارة المصقولة . فهذا يجسّد رغبة الإنسان الملحة في الإنعتاق ، في التحرّر من الخوف الذي تسببه الطبيعة . فيضانات ، وحوش .. قسوة الطبيعة ... الخ ... وعن هذه المحاولات الأولى التي جرّبها الإنسان كان مولد العلم والتقنية كتعبيرين ثقافيين : فبالعلم قد استطاع الإنسان السيطرة

ولو بصورة جزئية على الطبيعة ومن ثمة فقد مكّن العلم الإنسان من التحرر
والإنعتاق من الخوف والرعب اللذين تحدثهما الظواهر الطبيعية .

فالتعبير الثقافية قد تساعد الإنسان على التحرر من كلّ أشكال الوهم
والخرافة والأساطير Muthes وقد تقع كما قلنا سابقا عملية احتواء إيديولوجي
لبعض التعبيرات الثقافية التي تؤثر سلبا على المجتمع وذلك كتهريب الأفراد عن
واقعهم وتغيبهم عن الصراع الحاصل نتيجة لتناقض المصالح الاجتماعية لطبقة
معينة على أخرى .

من هنا نستطيع القول بأن الثقافة ليست كتلة جامدة ولا ماهية ثابتة ، ولا
عقلية صماء ، وإنما هي علاقة توتر مستمرة ، وثمره هذا التوتر الدائم بين الوعي
والواقع ، وبين الذات والموضوع تولد الحلول الواقعية التي تؤهلها لتقديم الحلول
الضرورية لإشكاليات الواقع (2) .

فاذا كانت الثقافة مظهرا من مظاهر وعي المجتمع لذاته في حقبة تاريخية
ما ، فما هو موقع التعبيرات الثقافية ضمن هذا الوعي ؟

نقصد بالتعبيرات الثقافية Expressions culturelles ، كلّ أشكال الوعي
الاجتماعي والتاريخي التي أبدعها الإنسان طوال حقبة تاريخية متباعدة ، في
صراعه مع الطبيعة ومحاولة السيطرة عليها ، وهي : الأسطورة ، السحر ، الدين ،
العلم ، الفلسفة ، الايديولوجيا والفن ... الخ...

ليست الثقافة إذن كتلة ستاتيكية . أي ثابتة . من المعارف أو القيم أو المعاني
والرموز والعادات والتقاليد ، بل هي الآليات والفعاليات المعقدة والمتباينة التي
تسمح بنشوء هذه المعارف وتخلقها .

فاذا كانت الثقافة تشكّل وعي كلّ جماعة لذاتها ومحيطها فليس للمجتمع
ذاتية أو هوية خارج الثقافة التي يمتلكها .

ينابع الثقافة :

1 - العلاقة مع الطبيعة :

إن معرفة طابع الثقافة التي تكونت منذ البدء لدى الإنسان تنطلق من

التساؤل حول ما كان يتهدّد بقاءه وتأمين حاجاته . هنأتأتي في المقدمة : الطبيعة والقوى الطبيعية . فثقافة الإنسان انبثقت أولاً من علاقته مع الطبيعة فلم يكن في ظننا . أي حيوان آخر له " حضارة " ذلك لأن الإنسان - كما يبدو - هو الكائن الوحيد الذي خرج من الطبيعة وانفصل عنها وشرع بشكل فعّال يسخرها لصالحه

2 - الطبيعة الإنسانية والطبيعة الفردية :

مهما تكن الطبيعة مسالمة معطاء تجاه الإنسان ، ثمة نقص ، دائم يحركه من الداخل إنّه الطبيعة في الإنسان نفسه ، طبيعة الإنسان الذي يولد وينمو ويتكاثر ويموت هذه المظاهر الطبيعية " الغربية " في ذات الإنسان ، أثارت اهتمام وقلق الإنسان فكانت موضوعاً لتعابير الثقافة والفنية الأولى ، فكان الفن كتعبير ثقافي قد عبر من خلاله الإنسان عن قلقه أمام الظواهر الطبيعية التي تفرض حضورها باستمرار وعن سيطرته على الطبيعة هذا الصراع مع الطبيعة الخارجية الداخلية شغل الإنسان بكلّيته ففكر وجرب وعجز عن أحاسيسه وذلك بالرسمات الفنية كشكل من أشكال التعابير الثقافية ومن خلال هذا الصراع نبعت ثقافة الإنسان الأولى التي تطوّرت بتطوّر هذا الصراع وترقى الإنسان فيه .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الخاتمة :

ما نؤكد عليه في هذا التحليل وهو أنّ الثقافة ليست كتلة جامدة أو ماهية ثابتة ولا بنية منغلقة متوقعة على ذاتها بل هي فعاليات وآليات تحاول كلّ جماعة ما أن تجد حلولاً للإشكاليات التي يفرضها الواقع فرضاً وتقليها الحقب التاريخية على الإنسان ، والثقافة على هذا الأساس هي التي تحدّد هويّة وذاتيّة مجموعة بشرية ما وتحفظ لها كياناتها وتضمن بالتالي توازناتها الذاتية والقائمة على فهم الجدل القائم بين الوعي والواقع .

ملحق المراجع :

- 1 - اغتيال العقل : د. برهان غليون .
- 2 - ينابيع الثقافة ودورها في الصراع الطبقي : بوعلي ياسين .

علاقة المراهق بالبيئة الإجتماعية من خلال الأدب الروائي (علاقته بالبيئة الأولى والثانية)



بقلم : لطفي بن عمر جمعة

من المؤسسات الهامة التي يتحرك فيها المراهق المدرسة والأسرة فهذه الأخيرة تعتبر الخلية الأولى التي يتفاعل معها المراهق وإن مستوى المراهق من التكيف والنمو يتوقف لدرجة كبيرة على اتجاهات الوالدين وعلى الجو السيكولوجي والإجتماعي السائد في المنزل " (1) . أما المدرسة التي لها مهمة التربية وتكوين شخصيته من جميع نواحيها إلى جانب المهمة التعليمية فقد أصبح لها تأثير واضح على حياة المراهقين مثلما هو الحال بالنسبة للأسرة التي هي أول الأطر الإجتماعية والمدرسة ثابتها يمكن أن يتعرض لهما المراهق لأزمة من أزمات النمو إن لم يسر هذا النمو في مجراه الطبيعي . وكان اختيارنا للأدب الروائي من أجل كشف أسرار هذه العلاقة لما تمتاز به الرواية أو القصة من ارتباط بالواقع و"استجابتها لواقع الحياة {فأنها} ... تصف حياة الأفراد العاديين وخواج نفوسهم وأحوال مجتمعهم " (2) . فكيف كانت العلاقة بين المراهق والأسرة وبينه وبين المدرسة كما صوّرت في الأدب الروائي ؟

علاقة المراهق بالأسرة :

لقد كانت الأسرة ، الخلية الأولى التي يتفاعل معها المراهق في العادة غير صالحة لتنشئة فرد متكيف نفسياً واجتماعياً لأسباب تتعلق بكيفية معاملته والفكرة المحسولة عنه وطريقة فهمه . إذ أن العلاقة بين المراهق وأسرته تمتاز بعدم الثقة فيما يقوم به .

فهذه أم هيفاء في (هذا الليل الطويل) تتجسس على ابنها دائماً " فلقد

سبق وتجسّست على ابنتها ولكن الأحاديث (التي كانت تدور في الهاتف) كانت تدور في كثير الأحيان باللغة الفرنسية⁽³⁾. وهذا الحديث أيضا الذي دار بين امرأتين يوضّح كذلك عدم الثقة القائمة بين المراهق وأسرته فقالت الأولى :

- أصبحت أفكر في أمر ابني عزيز .

- ما له ؟

- منذ ذهب للدراسة بالجامعة هناك لم يعد يطبق الإقامة بالبيت حتّى في فصل الصيف يدعي أن كتب الدراسة لا تتوفّر إلّا في مكتبات تونس .

- كلهم كذّابون حتّى زوجي لم يعد يستطيع التخلف عن السّفر إلى العاصمة مرّتين في الأسبوع على الأقل .

- بالنّسبة لزوجك مصالحه التجاريّة أمّا هذا الكلب ابني فالسبب واضح الآن اللّيلة سوف تكون ليلته إذا لم يعترف بالحقيقة .

- أية حقيقة يا نزيهة ، لقد جننت .

- لم يعد لدي الآن شك في أنّه يذهب إلى هناك للتفرّج على النّساء (4) .

وعدم الثقة في المراهق يصحبها عندهم فهم لمشاعره وهذا من ضمن العوامل لسوء التعامل معه وتآزم العلاقة بينه وبين الأسرة .

" ففي يوم من الأيام نزل بالدار بعض الضيوف واضطرّ الرجل إلى إصابة قليل من الرّاحة في غرفة منعزلة عن ضوضاء الضيوف فكانت حجرة إبنته ولما استلقى بفراشها وجد على منضدة النوم الصغيرة حذو السرير كرّاس يوميات الفتاة فأخذ يتأمّل فيها فقرة فقرة وجملة جملة ... (فكان محسن) الضحية وكبش الفداء باتّفاق أعضاء مجلس التّأديب على رفته من جميع مدارس التّعليم العام والخاص رغم اطلاعهم على محتوى الكرّاسة واقتناع جميعهم بأنّها لا تحتوي غير أضرّات أحلام المراهقة وليس فيها أمر خطير على الأخلاق والتّربية وليس هناك ما يخلّ بالشرف للجانبين معا ولا سيما صاحبة الكرّاسة " (5) .

وهذه فاطمة كتبت في مفكرتها الخاصّة التي عثر عليها بعد أن أقبلت على الإنّتشار "الصفحة الرابعة ... خطّت فاطمة ... والذي !. هذا الرجل الذي كان يفترض فيه أقرب النّاس إليّ ... ما سمعته قط يناديني بكلمة مسكونة بالخنان

لم أحس في يوم من الأيام أنه فتح لي قلبه . يعرفني من الخارج فقط ! مخلوقة تتحرك على الأرض ... وما دامت تمشي فهي بخير ... مشاعري ، عواطفني ، مشكلاتي ليست لها قيمة عنده ... كم كان يؤمني ذلك فيجعلني أقضي ساعات طويلة في البكاء وحدي ... أنتفض مثل جريحة " (6) .

إن عدم فهم مشاعر المراهق يصل إلى حد تجريحه فينفعل لذلك إلى حد البكاء كما أن الأسرة لا تتقبل مشاعر المراهق وإن تقبلتها فذلك يكون بالسخرية والإستهزاء وحتى برد الفعل العنيف . فقد يصل بالأبوين في (كلها قلب) أن لا "يفكروا أبداً في أن قلباً طرياً كقلب (هيام) يمكن أن يحمل ما يسمى عندهما بجرثومة الحب ولو علما بذلك لكان نصيب (هيام) الحرمان من الدرس قطعاً وخنق حرمتها المحدودة التي سمحها لها بها مجازاة لسنة التطور عن مضى" (7) .

كما أن السخرية أو الاستهزاء لا يشتمل مشاعر المراهق فحسب وإنما يشمل قناعاته الشخصية وأعماله . فإن حسين في (قصر الشوق) يقول "إن أسرتي جميعاً لا تفهم آمالي يروني طفلاً مدكلاً . قال خالي مرة متهمكاً على مسمع مني "لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيراً من هذا "لم هذا كله ؟ لأنني لا أعيد المال ولأنني أؤثر الحياة عليه أرأيت ؟" (8) .

وزيادة على ذلك فإن الجو السائد في الأسرة جواً سلطوياً تكون للأب فيه سلطة قوية فلا أحداً يستطيع أن يخالف له أمراً فالعلاقة القائمة بين المراهق والأب يسودها الخوف والارتباك فإن تكلم المراهق بحضرة الأب يعتبر عملاً لا أخلاقياً وإن بدت عليه علامات عدم الرضا يعتبر ذلك تحدياً وإن خالف للأب أمراً يعتبر ذلك خروجاً عن الطاعة وكل ذلك نتيجة للنظرة السائدة لدى الكبار من أن المراهق مازال صغيراً وللصغار تصرفات لا يمكن تجاوزها إلا بموافقة الكبار .

فقد " اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية ويسلم الأب وهو يتناول رغيفاً معلناً بدء الأكل فتبعه ياسين ثم كمال على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القل . كان مظهر الأخوين يدل على الأدب والخشوع ولكن خلا قلباهما . أو كادا . من الخوف الذي كان يركبهما . قديماً . في حضرة الأب . ياسين : لأن بلوغه الثامن والعشرين منحه امتياز من امتيازات الرجولة وضماناً ضد الإهانات الجارحة والاعتداءات التعسفية . وكمال : لأن بلوغه السابعة عشرة

وتقدّمه في الدّراسة وهباه نوعا من الضمان أيضا ألا يكون بقوة ضمان ياسين فأنّه لم يخل من العفو والتسامح على الأقل في الهفوات التافهة إلى أنّه أنس من أبيه في السّنوات الأخيرة. أسلوبيا من المعاملة تخفّف من البطش والارهاب بدرجة محسوسة ولم يكن من النّادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصّمّت يتحكّم في مجلسهم تحكّما مخيفا إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهجة ولو بغم ممثّل بالطعام . أجل ! لم يعد غريبا أن يخاطب ياسين أباه فيقول مثلا : " زرت أمس رضوان في بيت جدّه وهو يقرئكم السلام ويقبّل يدكم " فلا يعد السيّد الخطاب جرأة غير محمودّة ولكنّه يقول له ببساطة : " ربّنا يحفظه ويرعاه "... ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب محدثا بذلك تطوّرا خطيرا في علاقته التّاريخيّة بأبيه " متى يستحق رضوان شرعا لأبيه يا بابا " فيجيب السيّد : " عندما يبلغ السّابعة " بدل من أن يصيح به : " اخرس يا ابن الكلب " طاب كمال يوما أن يتعرّف على تاريخ آخر شتيمة تلقّاها من أبيه حتّى تذكّر أن كان ذلك قبل عامين على وجه التّقريب أو بعد حبّه . الذي غدا يؤرّخ به .

بعام إذ شعر وقتذاك بأنّ مصادقته لشبان من طراز حسين شداد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلّب زيادة كبيرة في مصروفه كي يمتدّى له مجاراتهم في لهوهم البري . فشكا أمّه إلى أمّه راجعا إليها أن تخاطب إبّاه في شأن الزيادة المأمولة ومع أنّ مخاطبة الأب في مثل هذا الأمر . لم تكن يسيرة على الأم إلا أنّها هانت بعض الشيء . بتغيّر معاملته لها عقب وفاة فهمي فحدثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرّقة لابنها بأصدقاء من " الأكابر " وعند ذاك دعا السيّد كمال وصبّ عليه غضبه حتّى صاح به " هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك ! ... ملعون أبوك وأبوهم " فغادره كمال خائب الرّجاء " (9)

إنّ طاعة المراهق للأب لم تكن نتيجة للإحترام وإنّما كانت طاعة خوف من بطش الأب . فلقد دخل الطاهر في رواية (عائشة) الغرفة فوجد والده جالسا ينتظر طعام العشاء فانحنى عليه وقبّله في خشوع وانثنى راجعا على أعقابيه يريد الإفلات من سلطة لسان أبيه ولكنّه أوقفه بكلمة واحدة : " أين أنت يا سيّ" الشباب " - إنّي هنا "

- أظنّك شممت صنان إبطيك ... " (10)

أما هؤلاء الفتية (التطليق) فهم أيضا يحاولون إظهار الخضوع نتيجة لسلطة الأب القويّة فيقولون " كنّا نريد الضحك معه لارضائه وإظهار خضوعنا التام لرئيس العشيرة بدون منازع ولكنّا كنّا نتردّد في ذلك خوفا من إهانتة وجرح عواطفه ولم نكن نستطيع ذلك في واقع الأمر لأنّ الخوف كان يجعلنا نتلعثم فنفقد أصواتنا وينعدم من نفوسنا الشعور بمرور الوقت فنصبح لا ندري كم الساعة فكانت نفوسنا تترجرج لذلك تذبذبا وكانت تلك هي اللحظة التي يصبح فيها بحثنا حاسما فنبتغي وضع حدّ للقطيعة واسترجاع الأبوة كاملة غير منقوصة واسترداد الوالد وإعلاء وإجلاله " (11) .

ولكن هذا الوالد يعتبر العلو والاجلال في إذلال الأبناء المراهقين لا شيء إلا اعتبارهم غير أهل للدخول في عالم الكبار بعد . "فكان يزق ويخور ويجلس ثمّ ينهض ويأتي بالأحاديث المشوّشة المضطربة ويشقّب الهواء بذراعيه المرتخين ويصفعنا (كما يقول الفتية) على وجوهنا ويطلق التآوهات والشخرات ويحمحم ويبصق علينا ويكبّنا ويلومنا على جبننا لقد استقرّ في نفوسنا الذعر والهلع فأصبح من العسير على المرء أن يعرف هل تحقق صبيّة أم لم يتحقق لفرط اندهالنا أمام شطحات الوالد حول طفولتنا المدفوسة لم نعد نفكر حتّى في الدفاع عن أنفسنا بل كنّا مشدودين كمن شدّ بالمسامير إلى عينيّه الشبيهتين بعيني ثعبان أعمى قد بلغ من السنّ عتيا " (12) .

ويتدخّل هذا الأب في كل كبيرة وصغيرة تخص المراهق الأمر الذي يجعله محدود الحرية بل لا يملك حرية تحديد مستقبله لأنّه يُعتبر مشروعا لهدف يريد الأب تحقيقه دون مراعاة لامكاناته العقلية والجسميّة ولميولاته الشخصيّة . فالسيد في (قصر الشوق) يريد من ابنه أن يكون موظفا لا مدرّسا فيقول " بصفتي والدك ! أريد أن أطمئن على مستقبلك أريد لك وظيفة محترمة هل يختلف إثنان في هذا ؟ الذي يهمني أن أراك موظفا مهابا لا مدرّسا بانسا... " (13) .

وكثيرا ما يقوم الأب بتعنيف المراهق في صورة إذا بدا عليه عدم الموافقة أو إبداء رأي مخالف . فهذا أحد المراهقين يقول " تقدّم الزمن وجسمي لم يبرح المتر والثلاثين سنتمرا ومع الزمن دبتّ اليبوسة والتعظم إلى جسمي ... وأعلنت في

غمرة نشوة من نشوات الصّف الثّاني العصيان على أبي شنب(الوالد) وأبلعت رفاقي النّبأ وكانت بحق غلطة العمر إذ ترامي إلى سمعه الخبر فعجّل عليّ بعضاه وعلّقني وأنا موثوق من الأربع في كرنافة قرية بجذع نخلة ... (14) . أمّا هيام فقد أرادت من تصرّفها إبراز ماتغيّر في جسمها تأكيداً لذاتها فلاقت التّعنيف من أمّها " فلقد حدث لها ذات يوم أن صفّت شعرها بطريقة جذابة بعد أن شدّت خصرها بمنطقة عريضة واختصرت من طول الفستان قليلا وأظهرت من محاسن جسمها ما أمكن إظهاره ككشف النّحر وحصر النّهود ولكن باثر ظهورها من بيتها بهذا المظهر تلقت صفة هائسلة من يد أمّها التي تراءت لها زينة ابتنها على هذا النّحو وقاحة تستحقّ الرّدع والتّأديب سيما وهي ما زالت في عامها الثاني عشرة " (15) .

ومثل هذه التصرفات يتأكّد عدم فهم الوالدين للمرحلة الجديدة التي وصل إليها أبناءهم ممّا جعلهم يتصرّفون معهم على أنّهم أطفال لاعتقادهم بذلك ومثل هذا الاعتقاد يؤلم المراهق ويجعله يسعى بكل الوسائل لتحقيق استقلاله الذي لا تسمح به الأسرة . فمحسن في (عواصف الخريف) يقول " قصر أمّي وأخواتي وحتى زوجة أبي في عواطف جاهلة يصرون على بقائي هنا وأنا أتخطئ الثامنة عشرة " (16) . أمّا السيد والد كمال في (قصر الشوق) يعتبر نفسه أعلم من ابنه للسبب نفسه فيقول " إنّي عليهم بما يقال عن هذه الشّؤون أمّا أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدّنيا شيئا . أمّا والدته فلا تسمح له ببعض التصرفات لاقتناعها بصغر سنّه وما دار بين كمال وصديقه يؤيّد ذلك " تصوّر أنّها (والدة كمال) ترتعد إذا علمت بتردّدنا على هذه القهوة أو غيرها وتظنّ أنّ أغلبية رواد المقاهي من الحشّاشين وسيئي الصّمعة !

- وسي ياسين ألم تعلم بأنّه من رواد المقاهي ؟

- إذا قلت لها قالت لي : أنّ ياسين كبير لا خوف عليه أمّا أنا فصغير الظّاهر أنّي سأظلّ معدودا في الصّغار في بيتنا يدركني المشيب " (17) .

وكثيرا ما يتلقّى المراهق الوصايا والتّحذير ويحاول بكلّ جهده تنفيذ توصيات الأسرة فيبقى في صراع بين إصراره على تنفيذ وصايا الأسرة وتلبية رغباته

ومشاعره . فكان (دربال) "خلال إقامته بالعاصمة قد حاول تنفيذ توصيات جميع أفراد العائلة الذين حذّروه من مغبة الوقوع في المزالق ووصفوا له المدينة بأنها خدعة على المرء أن يتجنبها . كان يقول لنفسه كلّ ما مرّ بمشهد مشير "إنّها خدعة بالفعل ولكنّها خدعة رائعة" وكلّما واجه في طريقه فتاة جميلة يتذكّر وصية أمّه فيرفع يديه إلى عينيه يغمضهما وقد استطاع أن يفعل ذلك مرّة واحدة وفي المرات الأخرى وجد يديه لا تطيعانه وفي أحيان كثيرة كان لا يكتفي بفتح عينيه فقط وإنّما يجد قمه ومنخره وأذنيه وكلّ عضو من أعضاء جسمه في حالة دفاع شرعي ضدّ أوامره الجائرة" (18) .

إنّ إصرار الوالدين على اعتبار المراهق طفلاً ليس خوفاً عليه وإنّما لإصرارهم على أن يبقى طفلاً ولعدم استعدادهم لمنحه استقلاله . فقرر أمّ حسن في (المنيت) ذهبت إلى جارتها تفضي لها بتخويفها على إنها فردت عليها هذه الأخيرة (أمّي لطيفة): "هكذا جيل اليوم ربّه وكونه فاذا كبر غادرك ونسيك من التعلم" . فحزّ في نفس قمر أن تسمع هذا الحكم القاسي على إنها لا . لا إنّها ليس كغيره من الشبان بل هو مثال الاستقامة في السيرة والاعتدال في السلوك إنّها تعرفه جيّداً وتعرف ما يكرهه نحوها من عواطف المحبة ومن التعلّق الشديد بها لا تصدّق أن يكون ابنها من نوع أبناء جيل اليوم لا يفكرون إلّا في صالحهم ويبادرون إلى الابتعاد عن وسطهم وعائلتهم ويقطعون الصلّة بماضيهم إنّهم ليس منهم ولن يكون منهم" (19) . وهذه أمّ الطاهر في رواية (عائشة) تقول معبرة عمّا يخالج صدرها "يا ليتكم أبها الأولاد تبقون صغاراً نحتضنكم نحن الأمّهات كاللدّجاجة تحتضن فراخها ولكن ما لنا حيلة" (20) .

وزيادة على اعتبار المراهق طفلاً صغيراً كثيراً ما يقع نعته بنعوت غير لائقة ممّا يجعله يشور لذلك أو يصل به الأمر إلى الإقتران بتلك الأوصاف فيكون صورة عن نفسه انطلاقة من تلك الأوصاف . فالسيد في (قصر الشوق) يخاطب ابنه كمال فيقول له : "ثمّ ما بالك تتكلّم عن العلم كأنّه علم واحد ! ألم أقل لك إنّك غرّ صغير ؟ هناك علوم لا علم واحد للصّعاليك علومهم وللشوات علومهم إنهم يا جاهل قبل أن تندم ! وينعته بالحماقة فيقول " أنت طفل أحمق ألا تدري ما هي

النيابة وما هو القضاء ؟ (21) .

وكرد فعل ممكن كان المراهق ساخطا على الأسرة غير راض عما يسود فيها إلى حد التفكير في الهروب والانتحار . فلقد بدت له ولسبب ما " طبعة مفتوحة ساخطة عن عائلتها وعن نفسها في نعمة يشوبها الحزن الدفين " (22) أما فاطمة في (الانتحار) فقد كتبت في مفكرتها في الصفحة العاشرة "أنا لم أقتل نفسي ... أنا أتهمهم هم ... ذلك البيت الذي ما اعترف يوما بانسانيتي ... الشعور بالاضطهاد يؤدي إلى الموت ... أعرف أنه ربما هناك حل آخر لكنني أخرت ... أرجو الصبح ... لا شك أنني أتعبكم بالتحقيقات وغيرها ... لكن لا تهتموا بوحدة ميتة ... التفتوا إلى الأحياء ... أخلقوا عالما يسوده الحب ... حتى لا تفقدوا الإنسان " (23) .

علاقة المراهق بالمدرسة :

إن المراهق في المدرسة يجد الكثير من المشاكل فلا المناهج الدراسية تتماشى والمرحلة التي يمر بها ولا العلاقة بين المدرس والتلميذ يسودها التفاهم . فهذه الشابة في (موعد علمي لاحق) تذكّر أيام كانت تلميذة " تذكّرت المدرسة والمبيت والنظام فتذكّرت الخوف والإنكماش ومشت إليها صور رصاصية موحشة من بناء أسود شامخ حزين فيه إباء ديني ووحشة شتائية وصرامة جرداء... كانت الدروس كالعبادات والطقوس تلفّها الرّهبة ويرسمها الصمت والحدود قائمة كالأطواد وكان التلاميذ والأساتذة والإدارة آلهة منعزلة جامدة ممسوخة تموت في نفسها أمنية أن يصلي لها ويحوق في وجهها البخور وترتفع التراتيل إلى قلبها البارد الحاوي " (24) .

ويوجد في المدرسة حاجز بين المراهق والأساتذة وبينه وبين الإدارة وكأن المراهق حيوان متمرّد يجب ترويضه فالأستاذ عادة ما يضع نفسه موضع الأمر والنهي يعني يتصرّف من موقع السّلطة والإدارة نفس الشيء فكلّ هفوة من لدن التلميذ المراهق إلا ويكون السيف مسلّطا عليه . فلقد كان (محسن) ضحية صداقة بريئة مع صديقة له كانا يتعاونان على النشاط المدرسي وكانت هذه الفتاة مغرمة بتسجيل ما يقع في يومياتها فوق العصور عليها فكان هذا الأخير الضحية

فيقول " كنت أنا الضحية وكبش الغدا ، باتفاق أعضاء مجلس التأديب على رفتي من جميع مدارس التعليم العام والخاص رغم اطلاعهم على محتوى الكراسة واقتناع جميعهم بأنها لا تحتوي غير أضغاث أحلام المراهقين وليس فيها أمر خطر على الأخلاق والتربية وليس هناك ما يخل بالشرف للجانبين معا ولا سيما صاحبة الكراسة " (25) .

أما الأستاذ فإن طريقته في التدريس تضفي على الفصل جوًا من القداسة والرهبية بعيدا عن التفاعل والحركة مما يجعل التلميذ يغوص في أحلام اليقظة للملل الذي يعم الفصل . فهذه هيفاء " كانت تنظر إلى المعلمة وهي تشرح لها ولزميلاتها حقائق علم الحساب والجبر بينما أفكارها بعيدة بعيدة ... " وقد رأيتها المدرسة و" نظرت ... نحوها فرأتها تنظر إلى اللوح الأسود بعينيهما الخضراوين الواسعتين ومع ذلك فقد كانت على ثقة كبيرة أن الفتاة لا ترى شيئا لأن أحلامها تقودها إلى آفاق بعيدة ... غير منظورة " (26) .

وكثيرا ما يظهر المدرس التبرم وسرعة التوتر وأحيانا الكره لتلامذته وهذا ما يؤدي إلى تكوين تلاميذ يتصفون بمثل هذه الصفات . فمدرسة هيفاء (هيفاء) الفرنسية " تشعر بكره طبيعي لا تعرف مصلوحتها نحوها " . وعصرفت هيفاء بمشاعر مدرستها نحوها فتضايقته على من الأيام من كره مدرستها (جيزيل) لها وأرادت أن ترد لها الكيل كيلاين فراحت تبحث عن طريقة تدخل فيها الألم إلى نفسها " (27) . هذا الجور الخائن في المدرسة يجعل التلاميذ المراهقين يقومون بأعمال يتحدون بها سلطة المدرسة وقوانينها . فابراهيم صديق حسن يخاطبه فيقول : " أنسيت لما كنّا نتسلق سور المدرسة خلصة ونذهب إلى المقهى المجاور للعب الورق وكنت تفضل البقاء ... " (28) .

وخلاصة القول إن مثل هذه الصورة للمراهق في الأسرة والمدرسة وعلاقته معهما تكاد تكون لها ميزة معينة ، وهي عدم التوافق بين المراهق والآخرين في مؤسسة الأسرة والمدرسة لإجماع القصص والروايات عليها ، على الرغم من قلّة اهتمام قصاصينا بهذه المرحلة التي تبدو مادة خصبة للإبداع . فليس ثمة من الروايات ما يصور شخصية المراهق . ولو بصفة ثانوية . إلا ما جاء في بعض روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس . كما أنه لا نجد من القصص ما

يأخذ المراهق محور الأحداث كما هو الشأن بالنسبة للكاتب الروائي الإيطالي المعاصر "البرتو مورافيا" الذي أبرز في الكثير من قصصه ما ينتاب المراهق من أحاسيس ومشاعر ومشاكل وخاصة في قصته "المراهق" الذي يعرض فيها بالتحليل شخصية فتى مراهق .

الهوامش :

- 1 - د. مصطفى فهمي - سيكولوجية الطفولة والمراهقة - دار مصر للطباعة - بدون تاريخ ص 283
- 2 - أنيس المقدسي - الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة - دار الكتاب العربي بيروت 1963 . ص 499 .
- 3 - 26 . 27 . وفيق العلايلي - هذا الليل الطويل - مكتبة المعارف - بيروت 1981 ج 1 ص 10 . 11 . 13 .
- 4 - محمد صالح الجابري - ليلة السنوات العشر - الدار العربية للكتاب - ليبيا . تونس 1982 ص 79
- 5 . 16 . 25 - عبد الرحمان عبيد - عواصف الخريف - مطبعة تونس قرطاج . 1981 ط 2 . ص 29 . 84
- 6 - 23 - محمد المسلاتي - الانتحار - في مجموعته القصصية - الضجيج - الدار العربية للكتاب - ليبيا . تونس 1977 ص 70 . 73
- 7 . 15 - هند عزوز - كلها قلب - في مجموعتها القصصية - في الدرب الطويل - الدار التونسية للنشر - ديسمبر 1983 . ط 4 . ص 142 . 156 .
- 8 . 9 . 13 . 17 . 21 - نجيب محفوظ - قصر الشوق - دار القلم - بيروت - لبنان بدون تاريخ ص 181 . 53 . (22 . 23) . 49 . (49 . 68) .
- 10 . 20 - البشير بن سلامة - عائشة - مطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم - تونس ط 2 . 1984 ص 17 . 23
- 11 . 12 - وشيد بوجدر - التخليق - ترجمة صالح القرمادي - دارسراس للنشر - بدون تاريخ - ص 88 . 89 . 87 .
- 14 - محمد صالح الجابري - بنت الملاك - في مجموعته القصصية - إنّه الخريف يا حبيبي - الدار التونسية للنشر - 1983 . ط 3 . ص 50 .
- 18 . 22 - محمد صالح الجابري - البحر ينشر ألواحه - الدار العربية للكتاب - ليبيا . تونس - 1980 . ط 2 . ص 16 . 49 .
- 19 . 28 - ع . المجيد عطية - المنبت - الشركة التونسية للتوزيع - بدون تاريخ ص (51 52) 110
- 24 - عبد الصمد زايد - موعد مع الأفق - الدار العربية للكتاب - 1983 ص 181 .

التّوافق بين أحمد شوقي بك والشّاعر الفرنسي لافنتان

بقلم الأستاذ : عبد المجيد بن عمر العياري

من المستحسن أن أذكر المناسبة التي جعلتني أكتب عن هذين الشّاعرين المتمازين . في أواخر شهر فيفري 1998 وفي 3 مارس قرأت في جريدة الصّباح سلسلمن الكتابات المتعلقة بالتّعليم وأساليبه القديمة والحديثة مع المقارنة بين علاقة المربي بالتلميذ بالأمس وما هي عليه في هذا الزّمان . ويقطع النّظر عن كلّ ما ورد من أقوال تقرّ بحسنات الماضي وتحسّر على اندثاره : فأنّي أحببت أن أقدم مثالا صغيرا لما كنّا نطبّقه من طرق في التّربية .

في عام 1959 جاء إلى مكّثر معلّم اسمه السيّد مبروك الزقارني عينته وزارة التّربية القوميّة في المدرسة الابتدائيّة للذكور ليؤدّس مادّة الفرنسيّة لتلاميذ الدّرجة العليا (س 6) وأنا أدّرس العربيّة من قبل . وأوّل لقاءني به تبادلنا معه أطراف الحديث بعد التّرحيب ، ومن خلال المحادثة وجدت الرجل يمتاز بخصال تنبئ عن استعداداته للعمل بكلّ إخلاص وجديّة فسعدت بمرافقته . واتّفقت معه على اتّباع طريقة وحدة المحاور في تدريسنا للعربيّة والفرنسيّة لأنّها تفيد تلامذتنا في فهمهم لما يتلقّونه من دروس في القراءة والأخلاق والانشاء والمحفوظات . وكان اختيارنا لقصائد المحفوظات متّحدا ووجدنا التّوافق بين الشّاعرين الكبيرين أحمد شوقي بك والفرنسي جان ديلا فانتان . في قصائدهما على لسان الطيور والحيوانات وكان كلّ من الشّاعرين يختم القصيدة بحكمة يحفظها التلاميذ وتبقى راسخة في ذاكرتهم . ودعت الحاجة حينذاك إلى التعريف بشخصيّة الشّاعرين وكنت دونتها في مذكرة رجعت إليها الآن وها أنّي أقدمها لعلّها تكون ذات فائدة لقرّاء مجلّة الإتحاف وكذلك لتلاميذ التّعليم الثّانوي الذين ينشدون المعرفة ويذهبون إلى المكتبات العموميّة للبحث عن المصادر التي تحتوي على المعلومات المطلوبة .



أمير الشعراء : أحمد شوقي

ولد أحمد شوقي بك سنة

1868 م بالقاهرة في عهد

الخديوي إسماعيل وتوفي ليلة 14

أكتوبر 1932 وعمره 64 سنة .

تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي

بمصر وقضى سنتين في دراسته

للقانون والترجمة ، وفي عام

1887 أرسله الخديوي إلى فرنسا

ليواصل دراسته للقانون ، وفي

مدينة مونتيلي الواقعة في جنوب

فرنسا تابع شوقي دراسته ثم انتقل

إلى باريس فأكمل دراسته وتخرج

حاملا الإجازة في الحقوق ورجل إلى

أنقطنرا ثم عاد إلى وطنه سنة 1891 وفي عام 1894 شارك في مؤتمر

للمستشرقين انعقد بسويسرا ، وفي عهد الخديوي عباس الثاني تولى رئاسة القلم

الإفرنجي ، وفي عام 1915 أعلنت أنقطنرا غضبها على الخديوي فخلعته عن عرشه

ونفت شوقي إلى إسبانيا فاختار الإقامة ببرشلونة صحبة عائلته . وفي نهاية الحرب

العالمية الأولى وبالتحديد في عام 1919 قامت الثورة المصرية وأمكن لشوقي أن

يعود إلى وطنه مصر ، وبدأ يتصل بالأوساط الشعبية وتقرّب إلى الشعب واستمع

إلى تشكّيات الناس وتعرّف على الأمراض الاجتماعية وضَمّ صوته إليهم في

المطالبة بالحرية والانتعاش من ريقة الإستعمار البريطاني ، وتفاعل شوقي مع

أحداث العرب الكبرى مثل "نكبة دمشق" سنة 1925 ، وانزعج لاستشهاد البطل

عمر المختار وحزن لإلغاء الخلافة العثمانية ، وقد عبّر عن مشاعره تلك في قصائد

شعرية مطوكة أظهر فيها عبقرية وقوة عارضة . ولم ينقض وقت طويل حتّى نال

شوقي شهرة كبيرة طبقت العالم وعمّت المشرق والمغرب ، وفي عام 1927 أقيم

حفل بهيج في دار الأوبرا بالقاهرة كرموا فيه أحمد شوقي وفي هذا الحفل ألقى
شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة بايع فيها شوقي بامارة الشعر العربي . وضَمَّ
صوته للأدباء والشعراء الذين بايعوه فقال في المطلع :

أمير القوافي قد أتيت مباحيا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
إنتاجه الشعري :

لشوقي ديوانه الكبير المشتمل على أربعة أجزاء فيها جميع قصائده التي
نظمها في المدح والركن والغزل وفي الوطنية والسياسة وفي التربية والأخلاق
والحكمة .

ولشوقي قصائد أخرى لم تنشر في ديوانه وقع جمعها بعد موته في جزئين من
كتاب أصدره الدكتور محمد صبري وسمّاه (الشوقيات المجهولة) وقال في المقدمة
(وقد وجدنا لشوقي أكثر من مائة وثلاثين قصيدة أو حوالي أربعة آلاف بيت من
الشعر وذلك بخلاف حوالي ألف بيت من المقطوعات والأبيات المتفرقة إلى جانب
حوالي ستين مقالة أو قطعة نثرية ، وكل ذلك لم ينسّق نشره في دواوين شوقي
بالإضافة إلى مؤلفاته التي طبعت أثناء حياته بعد مماته) .

الأرجوزة في شعر شوقي (2) : في عام 1970 نشرت دار الكتاب العربي
بيروت كتابا يحمل اسم « دول العرب وعظماء الإسلام » ونسبته إلى أحمد شوقي
وحوى الكتاب 25 أرجوزة خصّ بها تعظيم وتمجيد اللغة العربية وأشاد بجهاد
وخصال الخلفاء الراشدين والبطل الخالد الذكر خالد بن الوليد وأفرد كل قصيدة ذات
طابع تاريخي عنى به دول الإسلام المتعاقبة كالدولة الأموية والدولة العباسية
والدولة الفاطمية ، وله عن صقر قرينش عبد الرحمن الداخل قصيدة مطوكة تشتمل
على 131 بيتا في موشّع أندلسي .

معارضته لكبار الشعراء القدماء (3) : عارض شوقي كبار الشعراء مثل
المتنبي والبحتري وعارض البصري في نهج البردة (في الهمزية النبوية) فقال في
مطلع القصيدة عن مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

وَلَدَ الْهَدْيُ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

وفي ميلاد المسيح عليه السلام ، قال :

وُلد الرقّ يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء
لا وعيد لا صولة لا انتقام لا حُسام لا غزوة لا دمياء
وأطاعته في الإله شيوخ خشع خضع له ضعفاء
كما عارض أبا تمام وأبا نوّاس وعارض ابن زيدون في نونيته . وعارض أيضا
الحصري في قصيدته (يا ليل الصب متى غده) .
بيت القصيد في قصائد شوقي :

بيت القصيد في القصيدة الشعرية التي ينظمها شوقي يأتي غنيًا بالمعاني
السامية والدعوة إلى الفضيلة فيكون كالدرّة الثمينة في العقد الذهبي . والأمثلة
على ذلك كثيرة أختار منها الأغراض الآتية وهو بعض من كل .
أ - في الحث على التمسك بالأخلاق الحميدة قال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا
وقال في نفس الغرض في قصيدة أخرى :

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا
ب - في التنبيه على قيمة الزمن وعدم إضاعته قال :

دقات قلب المرء قليلة له إن الحياة دقائق وثواني
ج - في شأن تأنيب الضمير قال :

ليس بحمل ما يمل الظهر ما الحمل إلا ما يعاني الصدر
وفي قصيد آخر قال عن تأنيب الضمير :

إن للظالم صدرا يشتكي من غير علة

د - في الرسالة التي تؤدبها الصحافة في خدمة الوطن وفي الدفاع عن المظلوم
ومقاومة الانحراف والدفاع عن العدل والحق ، قال :

لسان البلاد ونبيض العباد وكهف المظلوم وحرب الجنف (4)

هـ - وفي حب الوطن وقد بالغ في تفضيله على الجنة قال :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

قصائده في التربية والتعليم : أجل قصيدة نظمها وأنشدها شوقي سنة
1924 بمناسبة الاحتفال بافتتاح نادي مدرسة المعلمين العليا وفي القصيدة توجيه

لمعلمي مصر ودعوة منه إليهم ببذل الجهد المتواصل لنشر العلوم وتربية الشَّباب ،
وفي المقابل طالب الشَّعب بواجب تقديره للمعلم وتبجيله واحترامه لأنَّه يؤدِّي رسالة
تكاد تكون كرسالة الأنبياء ويكاد المعلم أن يكون رسولا فقال :

قُسم للمعلم وقَّسه التَّبجِلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف وأجلَّ من الذي يبنى ويُنشئ أنفسا وعُقولا

وهذا المعلم الذي طالب له شوقي بما يستحقَّ من اعتبار ، نبَّهه هو أيضا إلى ثقل
المسؤولية التي يتحمَّلها فيجب عليه أن يكون قدوة حسنة لتلاميذه وأن يعطي المثل
الأعلى في العدالة وفي حسن السُّلوك ، فقال :

وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى روح العدالة في الشَّباب ضيلا
وقال :

'رَبِّوا على الإنصاف فتیان الحمى تجدوهم كهف الحقوق كهولا
ولم يتردَّد شوقي في تحذير المعلم من الوقوع في الزلل والانحراف لأنَّ هذا السُّلوك
يتأثر به التلامذة وينتقل إليهم كانتقال المرض بالعدوى . فقال :

وإذا المعلم ساء لحظ بصيرة جاءت على يده البصائر حولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ومن الضرور فسفه التَّضليلا
ويرى شوقي وجوب تعليم المرأة حتى تعين المعلم على تربية الناشئة فيقول :

وإذا النساء نشأن في أمية وضع الرِّجال جهالة وخمولا
ومن أمهات قصائده تلك التي عنونها بـ (مساير الأتيام) نظمها عام 1926
ومطلعها :

ألا حينًا صحبة المكتب وأحبب بأيسامه أحبيب

وهي منشورة في الجزء الثاني من (الشوقيات المجهولة) في الصَّفحات ، من 182
إلى 186 . وله مقطوعة ذات 8 أبيات دعا فيها الأطفال إلى الإقبال على المدرسة
ودعاهم إلى حبِّها لأنَّها تنير عقولهم بالعلم وتفتح أمامهم الطَّرِيق إلى المجد منها
قوله على لسان المدرِّسة :

أنا المصباح للفكر أنا المفتاح للذهن
أنا الباب إلى المجد تعال أدخل على اليمن

الأساطير والحكايات في شعر شوقي :

صاغ شوقي أساطير وحكايات في شعره حكاها على لسان الطيور والحيوانات في خمسين قصيدة تشابه فيها مع قصائد الشاعر الفرنسي جان ديلا فانتان الذي ترك ديوانا حوى 141 قصيدة على لسان الحيوانات والطيور . وكان ذلك من باب الإقتباس والتوافق وتنطبق عليه مقولة المتنبي التي أجاب بها عن الإتهامات التي وجهها له منافسوه حيث ادّعوا عليه بأنه يسرق شعر غيره فقال : « الشعر جادة (5) وقد يقع الحافر على الحافر » . وتكاد أغلب عناوين تلك القصائد هي هي كالتي نجدها لدى جان ديلا فانتان . ونأخذ مثلا واحدا نستشهد به فقصيدة الثعلب والديك التي مطلعها :

برز الثعلب يوما في شعار الواعظينا
فمشى في الأرض يهدي ويسبّ الظالمين
يختتمها شوقي بحكمة بليغة هي قوله :
مخطئ من ظن يوما أن للثعلب ديننا

وعنوان القصيدة عند لافانتان Le Coq et le Renard

ARCHIVE

يقول في مطلع قصيدته :

Sur la branche d'un arbre étoit en sentinelle

Un vieux coq adroit et matois

Frère dit un Renard , adoucissant sa voix

Nous ne sommes plus en gurelle

Paix générale cette fois

Je viens te l'annoncer , descends , que je t'embrasse

وفي آخر القصيدة يختتمها بحكمة فيقول على لسان الديك :

Car c'est double plaisir de tromper le trompeur

وهكذا باستقراء ما نظمّه أحمد شوقي من قصائد على لسان الحيوانات نجده عرج على القصة التاريخية التي ذكرها القرآن الكريم عن سفينة سيدنا نوح عليه السلام أيام الطوفان وحكى ما جرى بين الحيوانات التي أوتها السفينة . وفي ما يلي عرض لعناوين القصائد التي أشرنا إليها مع بيان المقصد التربوي وهي جميعها موجهة للأطفال .

عنوانين القصائد وأهدافها التربوية

العدد	عنوان القصيدة	المقصد التربوي
1	ضيافة قطّة	الرحمة بالحيوان
2	البلابل التي ربّأها اليوم	أثر البيئة والتربية السيئة
3	الدّيك الهندي والدجاج البلدي	عدوان القويّ الماكر على الضّعيف الأبله
4	العصفور والغدير المجهول	النّافع الذي يستتر ويخفي ولكن نفعه يظهر
5	الأفعى الثّيلية والعقرب الهندية	العدوّ يفتك بعدوه
6	السّلوقي والجواد	الباعث الذي يستحقّ العمل النّافع
7	فأر النّيط وفأر البيت	المجتري على ما لا يحسن
8	ملك الغربان وندور الخادم	الضرر الكبير ينشأ عن التّهانون الصّغير
9	الطّهي والعقد والخنزير	الاتعّاظ بعد فوات الأوان
10	وليّ عهد الأسد وخطية الحمار	الهلاك النّاشئ عن سجاغة الذّوق
11	الأسد والثعلب والعجل	العقل الكبير في الجسم الصّغير والعقل الصّغير في الجسم الكبير
12	الشّاة والغراب	حنان الأم ومصادقة الشّوم
13	أمة الأرانب والفيل	اختيار المشير العاقل
14	الخفّاش ومليكة الفراش	الصّديق الخاسي والصّديق المهلك
15	الأسد ووزيره الحمار	الوزير غير الكفّاء وضرره
16	النّملة والمقطم	الرّضا بما في الغنيمة
17	الغزال والكلب	النّفاق للمنعمة
18	الثعلب والدّيك	الحذر من العدوّ والمنافق
19	النّعجة وأولادها	حنان الأم
20	الكلب والقط والفأر	هلاك الضّعيف الذي ينجذ عدوه القويّ
21	سليمان والهدد	هلاك الظّالم بظلمه
22	سليمان والطّاووس	حكمة الله في توزيع الهبات والحفظ
23	الفصن والخنفساء	إعجاب كلّ أمّ بولدها
24	القبرة وابنها	الصّغير يخالف نصيحة الكبير فيصاب بالضرر
25	النّعجتان	العجب بما يسبّب الهلاك
26	السّفينة والحيوانات	اتّحاد اضطراريّ حين الخطر وفرقة حين الاطمئنان
27	القرود والسّفينة	الكذاب يهلكه كذبه
28	النّملة في السّفينة	غرور مضحك
29	الدّب في السّفينة	تسرّع وحقق

العدد	عنوان القصيدة	المقصد التربوي
30	الثعلب في السفينة	غلبة الطبع على التطيع
31	اللبث والذئب في السفينة	تنكر وغدر
32	الثعلب والأرنب في السفينة	تعفّف المضطرّ
33	الحمار في السفينة	لحم لا يؤكل
34	سليمان والحمامة	خبانة تجرّ إلى الحرمان
35	الأمد والضفدع	عفو العظيم وترفعه
36	الثملة الزاهدة	كسل يدعو العبادة
37	اليمامة والصياد	حقّ مهلك
38	الكلب والحمامة	جزء المعروف معروف
39	الكلب والبيّعا	الغفلة عن العدو والحسد الأعمى
40	الحمار والجمل	بلاهة المقيد والمستعبد
41	دودة الغرّ والدودة الوضاعة	قيبح نافع خير من جميل لا نفع فيه
42	الجمل والثعلب	قلق الضمير
43	الغزالة والأتان	غرور مضحك
44	الثعلب الذي انخدع	قد ينخدع الذكي الأريب
45	ثعالة والحمار	جاهل لا يدرك خطأه
46	البغل والجواد	تطاول الحقيق على مكانة العظيم
47	الفأرة والقطة	غريرة البقا
48	الغزال والحروف والنيس والذئب	ما يجره سوء اختيار المستشار الأحمق
49	الثعلب والأرنب والذئب	التقليد الأعمى
50	الثعلب وأمّ الذئب	استهانة بالجوهر وعناية بالعرض

وأثرى أحمد شوقي المسرح بالشعر التمثيلي والروايات مثل مسرحية (مجنون ليلي) و (مصرع كيلويترا) و (قمبيز) و (علي بك الكبير) و (عنترة) و (الست هدى) و (شيطان بتناזור) و (لادياس آخر الفراعنة) و (الأس).
ولشوقي مقالات نثرية ومسجوعة. وجمع ما كتبه نثرا في كتاب اسمه (أسواق الذهب).

لقد استوعب شوقي الثقافة الأوروبية ونهل منها وتشبّع بأدب كبار الأدباء وأشهر الشعراء، وقرأت للأستاذ الأديب رشيد الدواكي في كتابه "إشارات أدبية" في الصفحة 60 قوله (أعجب شوقي بآثار العرب ثم أعجب بروائع

الأدب الغربي واستلهم من آثار لافونتان ومن غزل لامارتين ومن مسرحيات كورناني ومن فكر سيد الرومنطيقية المطلق في أوروبا (فيكتور هيقو) الشيء الكثير . ويقول : « إن شوقي كَوْن مدرسة انتقلت بالشعر من دور الجمود والتقليد والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار والتعمق في دقائق التفصيلات » . وقال : « أحمد شوقي هو قَمَّة شامخة من قممنا الفكرية وصوت ساحر نقل السحر وجمال الصورة في دنيا الأدب الحديث .



Jean de La Fontaine est né en 1621 à Château-Thierry, et mort en 1695. Il a été un temps Maître des Eaux et Forêts et presque toujours protégé de quelque grand seigneur. Il le fallait : il était tout à la fois pauvre et amoureux du loisir, de la bohème et de la littérature. Le premier recueil de fables paraît en 1668 sous le titre *Fables choisies mises en vers*, le succès est éclatant. Il durera, sans éclipse aucune. Chaque courte pièce en vers est un bijou raffiné. La malice et la sagesse y font bon ménage : le fabuliste tire la morale de l'histoire sur un air de chanson.

جان ديلا فونتان :

« ولد جان ديلا فونتان سنة 1621 بشاطو تيسيري بفرنسا وتوفي سنة 1695 ، وكان في وقت ما مولى المياه والغابات وكان تقريبا محباً إلى قدر ما من بعض الأسياد الكبار ، وكان ذلك واجبا وفي نفس الوقت كان فقيرا وعاشقا لوقت الفراغ والترحال والأدب .
وكان أوّل مصنف من الأساطير له ظهر سنة 1668 تحت عنوان (حكايات

مختارة نسجت شعرا) . فكان التّجّاح عظيما ومتواصلا وليس هناك أيّ تراجع ،
كلّ قطعة شعريّة صغيرة كمثل جوهرة مصقولة فيتكامل الخيـث والحكمة ليكونا
عملا حسنا ، والروائي يستنتج الأخلاق من التّاريخ في جوّ غنائي .»

المؤرّخون الفرنسيون يعدّونه أحد الكتاب الأربعة الكبار في القرن السّابع عشر
وهم (راسين ، موليير ، كورناي ، وديلافوناتان .
كتب أحد المؤرّخين للأطفال قائلا : " هل حفظتم جيّدا أساطير ديلا فونتان التي
هي بحقّ مسرحيات صغيرة ؟ " .

Avez vous appris par coeur des fables de la Fontaine , qui sont de
vraies petites comédies :

الهوامش :

1 - جان ديلا فونتان : شعوره على لسان الطيور والحيوانات عبارة عن
أساطير وحكايات ومسرحيات صغيرة جعلت في كتاب تحت عنوان
(Fables de la fontaine)
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

2 - الأرجوزة : الرّجزُ بفتح الرّاء والجيم هو بحر من أبحر الشعر وزنه مستفعل
ستّ مرآت وقيل سمّي بذلك لاضطرابه تشبيها بالرّجز في النّاقة وهو داء يصيب
الإبل في أعجازها فاذا ثارت ارتعدت أفخاذها ساعة ثمّ انبسطت . (انظر المنجد
ص 250) ورجز أنشد شعرا من بحر الرّجز .

3 - معارضة الشّاعر لغيره من الشّعراء ، أي قابل الشّاعر شعره بشعر غيره وجانبه
وأتى بمثله .

4 - الجنف : الجور والظلم والميل عن العدل والحقّ .

5 - الجادة : هي الطريق التي يسلكها المارّون وجمعها جواد .

صراعات دور الطبيب

في تدخله في حياة الجنين

بقلم : عادل بالكحلة
باحث في علم الاجتماع

1 - الدور الرسمي للطبيب :

يُنظر إلى النظام الطبي باعتباره نظاما « لتوزيع خبراء ذوي كفاءة تقنية عالية لأداء خدمات تهدف لرفع المستوى الصحي لأبناء المجتمع وتحسين اللياقة البيولوجية للمرضى ». فالمنتظر من الطبيب التدخل بفعالية للعلاج والتقييم ، ودوره محايد بمعنى أن يقدم خدماته للمريض أيا كان . فالنظام الطبي نظام علاقات اجتماعية ، إذ أن الرض ظاهر اجتماعية وليس حالة بيولوجية فحسب ، فمع الخدمات الطبية يقدم الطبيب معاونة للمرضى على التوافق بطريقة أفضل مع ظروفهم الاجتماعية .

ومن هنا ، يرى بارتسوتز أن من حق الطبيب أن يفحص جسد المريض وأن يستجوبه عن خصوصياته الجسدية والنفسية والاجتماعية ، وأن من حقه أن يُمنح قدرا أكبر من السلطة في عمله وفي علاقته بالمريض .

ومن جهة أخرى يرى بارسونز أن من حق المريض في المقابل ، أن يُسمح له بالتخلي عن بعض مسؤولياته وأنشطته المعتادة (كالعمل والدراسة والأعمال المنزلية) ؛ وأن يُنظر إليه على أنه في حاجة للمساعدة والرعاية ، فالشفاء لن يكون « بناء على رغبته أو قراره الشخصي » .

ولكن هذا الدور الطبيي يخضع لتغيرات ، مثل تطور التقانة الطبية والعلم الطبي والسباق الثقافي والاقتصادي والبيئي والاجتماعي العام . كما أن هذا الدور يخضع لصراعات مختلفة .

2 - صراعات دور الطبيب :

إنَّ شاغل الدور الاجتماعي ، لا يؤديه في فراغ ، بل يؤديه في مجتمع حركي ، نشيط ، وداخل ظروف اجتماعية ليست له سيطرة عليها . فكل دور يتضمن إمكانات التعرُّض لتحديات أدوار أخرى : إنَّها صراعات الأدوار .

إنَّ الطبيب ، مثل بقية الفاعلين الاجتماعيين يتعرَّض في أدائه لدوره لصراع الأدوار ، سواء بين أدواره الخاصة : دوره باعتباره طبيباً ، ودوره في الأسرة ، ودوره - ربما - في مؤسسات وجمعيات مختلفة ؛ أو علاقة أدواره بأدوار أفراد آخرين : زملاء في المهنة ، زملاء في مؤسسات اجتماعية غير مهنية.. كما أنَّ دور الطبيب يتضمن إمكانات لتحديات أو صراعات من نوع آخر :

أولاً : الطبيب لا يعالج مريضاً واحداً ، بل عدداً من المرضى . ومن أجل تنظيم ذلك ، يخضع العلاج لرتابة خاصة لتوزيع جهوده على جميع العملاء . ولكن المرضى يختلفون في مدى حاجتهم للرعاية ، فمسبق بعضهم على آخرين (مثل ترتيب عمليات الولادة حسب تقدير الأطباء لميعاد كل ولادة ...) .

ثانياً : الأجهزة التقنية محدودة ، وهنا يضطر الإطار الطبي لتقدير المرضى الأولي باستخدامها قبل غيرهم (النس ، الجنس ، المكانة الاجتماعية ، الأمراض الأكثر إلحاحاً...) .

ثالثاً : يضطر الإطار الطبي للموازنة بين مصلحة المريض في وقت معين (زمن اكتشاف المرض) وبين مصلحة المريض في المستقبل . وفي كثير من الحالات ، يكون الطبيب نفسه غير واثق من تحقق المنفعة المثلى للمريض (فعليه مثلاً أن يتخذ القرار إما بإجراء الجراحة على ما فيها من مخاطرة أو رفض إجرائها ...) . رابعاً : في بعض المواقف ، تتعارض مصلحة المريض مع مصلحة أسرته (مثلاً : متى يقف الطبيب إلى جانب أسرة المريض عملياً ويقر إدخاله المستشفى رغماً عنه إذا كانت الأسرة ضاقت بمشاكله ؟ ومتى يتدخل الطبيب في شؤون أسرة المريض لمصلحة المريض ؟) .

خامساً : أحياناً ، يجد الطبيب نفسه في بعض المواقف ، غير قادر على مساعدة المريض ، إما لأن المريض غير قابل للعلاج بالمعطيات الطبية المعاصرة ،

وإمّا لأنّ وراء الأعراض مشاكل أُسرِيّة أو مهنيّة أو اقتصادية أو سكنيّة ...
ومّا يزيد في صراعات دور الطبيب ، التقدّم العظيم في تقانة الطبّ وصيدلته ،
، فيزداد التفاوت بين ما يستطيع الطبيب أن يقدمه بالفعل وبين ما يريده المرضى ،
أن يفعل . والمشكل أنّ أكثر الأطباء لا يريدون الإعلان عن محدوديّة قدراتهم ،
إمّا لأنّهم في انتظار الجديد من التطوّر الطّبيّ ، أو لأنّهم يستمتعون ببريق مكانتهم ،
أو لأنّهم غير واعين بها يواجه أدوارهم من صراعات (1) .
ولصراعات دور الطبيب خصائص مثيرة للإهتمام ، وربما الأكثر إثارة ، في
علاقته بالجنين .

3 - صراعات دور الطبيب في تعامله مع الجنين :

أ - المتعلّقات الأخلاقيّة بالقابليّة للحياة :

لعلّ القابليّة للحياة هي المحدّد لواجباتنا جميعاً (أطباء ، أمّهات ، آباء ...) .
نحو الجنين . ولذلك ، يرى الكثير من النّاس أنّ الإجهاض محظور إلّا لضرورة ،
فهم يعتبرون أنّ الإجهاض غير ذي الضروريّ قتلاً لبشر . لكن هناك ، عدد من
النّاس يعتبرون أنّ من حقّ الأمّهات أن يقررن اختيار الحمل أو عدمه ، باعتبار
أنّ الأمر يتعلّق بجسد شخصي . ويتعلّق المختصّون في علم الأخلاق والأهوتيّون
على هذا الموقف بأنّ ذلك يمثّل خطراً أخلاقياً إذ يؤكّدون أنّ الإجهاض غير
الضروريّ ليس اعتداءً على آخر فحسب ، بل اعتداءً على خصلة إنسانيّة فطريّة
هي الحبّ الأمومي ، فهو اعتداء الأم على ذاتها في جوهر الأمر ، في نظرهم .
لكن ، مهما كان موقفنا ، علينا أن نتميّز بين الجنين غير المولود بعد ، والابن
المولود بعد ، والجنين الذي لن يولد حيّاً . ثمّ علينا أن نعرف : هل إنّ الجنين في
هذه اللحظة الخاصّة أو تلك شخص ، وذو أهليّة أخلاقيّة وقانونيّة ، أم لا ؟
إحدى الجرائد الأمريكيّة أعلنت أنّ طبيبا اتّهم امرأة ذات 7 أشهر حمل ،
بتعريضها لتطوّر جنينها للخطر بالإفراط في المخدّرات ، فأمرت المرأة بالدخول في
برنامج مضاد للمخدّرات وتحاليل بوليّة منتظمة حتّى ولادة الطفل . وهناك جدال
حول إمكانيّة رفض المرأة للشغل إذا كانت تخاف إضراراً بالجنين . ولكن قلّ ما
يتناول الجدال مسؤوليّة الأب عن حياة الجنين وحسن تطوّره ، فتناوله للمخدّرات

والكحول وإفراطه في التدخين مؤثّر في نموّه المستقبلي ، وسلوكه مع الحامل مؤثّر أيضا بالتبعية .

ب - هل لنا واجبات أخلاقية نحو الجنين ؟

صحة الابن الذي لم يولد بعد ، الجنين المرتقية ولادته والمنتظرة حياته ، تبدو موضوعا خاصا ، من أقلّ الأمور الجسدية إلى الأمور التقنيّة ، من الجهود العضليّة والعصبية للإطار الطبيّ إلى الأمور الثقافيّة والقانونيّة والأخلاقيّة ... من التدخّلات المشيرة مثل الجراحة الجنينيّة ، من خلال العقاقير والحميات الخاصّة في مساع لجعل الحوامل تمتنع عن الكحول والتبغ والمواد السامة من أجل الحيلولة دون الإضرار بالذي لم يُولد بعد ، أو معالجته ، أو تحسين حاله .

لكن إلى أي حدّ يجب أن نذهب في إقناع المريضات بالسكري بسياسة مرضهنّ طيلة مدة الحمل ؟ هل يجب إعلامهنّ بالعواقب التي تنتظر جنينهنّ ؟ هل يجب على الطبيب إقناعهنّ بلطف أم إرهابهنّ ؟ إذا رفضنّ التعاون ، هل يجب استعمال دعاوى مدنيّة أو قضائيّة لمحاولة إجبارهنّ ؟ هل يجب إخضاعهنّ للقانون إذا كنّ في حالات مخدّرات ، فكلّ أمّهات مخدّرات ، ومن ثمّة ربّما يتضرّر أجنتهنّ ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ماذا عن أم مشكوك في تناولها عقاقير - بصورة شرعيّة أو غير شرعيّة - قد يؤذي الجنين ؟ ماذا عن أم تدخّن أو تدمن على الخمر ؟ شاق ، أن نحاول تثبيطها عن التدخين والشراب طيلة الحمل ، فإذا واصلت الفعل بأسراف ، إلى أي حدّ يتحرك الطبيب وراء نطاق الإقناع والإجبار ؟

إذا كنّا نعتقد ، في مستويات القانون ، في حالات جنينيّة سُميّة (2) كامنة ، هل يجب أن نصدّ كلّ امرأة حامل ؟ ماذا عن « الحامل كامنة » التي هي ليست عقيما ؟

إنّ الحالة القانونيّة للجنين إشكاليّة . إنّ المدافعين عن « حق الحياة » يؤكّدون أنّه حتّى البويضة الملقّحة شخص مؤهل لكلّ الحماية والحقوق التي يتمتع بها كلّ شخص . عدّة ناس آخرين ، ومنهم بعض الذين مع الإرتياب من الإجهاض ، يعتقدون أنّ للجنين - خاصّة - في مراحله المبكّرة من التطوّر ، منزلة أدنى أخلاقيا

من منزلة الكبار والأطفال ومن منزلة الأجنة في المرحلة المتأخرة . فليس هناك إجماع في هذا المجال .

من حسن الحظ ، أننا نستطيع أن نناقش كون الجنين باعتباره « مريضاً » ، دون أن نصبح غاطسين في مستنقع الجدل حول الإجهاض . كل ما نحتاجه تمييزاً بسيطاً بين الأجنة المقدّر حملهم للولادة أحياء ، وبين أجنة لا تعلم حياة حملهم خارج الرحم .

بعض المنظرين يحاولون أن يبرهنوا أنّ الجنين ، وحتى الطفل والابن الصغير ، ليست لهم منزلة قانونية ، أو لهم منزلة دُنيا . وبعض الكتاب يحاولون البرهنة على أنّه مهما يكن من أمر ، فإنّ للجنين منزلة قانونية بالتبعية إلى المرأة التي في جسدها ينمو الجنين .

ج - افتراض إذابة الجنين :

لنفترض حالتين مختلفتين في الأولى رجل يتهجم على امرأة بنية تسديد إذابة بليغة لجنينها ، ونجح في التسبب في ضرر دائم غير قابل للإصلاح للنخاع ، رغم أنّه غير مميت ، أدى إلى شلل . في الحالة الثانية ، كلّ الوقائع كانت مطابقة للحالة الأولى ، إلا أن الرجل هاجم طفلاً (أكبر من جنين) ، مع النتيجة نفسها . شلل دائم غير قابل للإصلاح . هل إنّ الفعل الأول أقلّ خطأ من الثاني ؟

في كلتا الحالتين كان الضرر المديد بمصاحبة بشرين . وفي رأي أستاذ الأخلاقيات توماس مروي ، إنّ الإضرار كلّما كان متأخراً ، كلّما كان أعظم ؛ كما يلاحظ أنّ الأذى اللاحق بالجنين ، يمكن أن يكون نتيجة أذى لحق أمّه .

من ناحية أخرى ، بيّنت دراسة أنّ المرأة التي تدخّن علبة سجائر أو أكثر في اليوم ، يكون لها رضيع ذي 180 غ أقل من مولود المرأة التي لا تفعل .

والدراسة نفسها تبين أنّ المرأة التي تشرب 20 قارورة جعة أو أكثر في الشهر ، يكون لها رضيع بأقل من 100 غ . ماذا على الطبيب أن يفعل هنا ؟

لما يكون الخطر ضئيلاً ، نستعمل التوجيه والإقناع . أمّا هنا ، فنستطيع - حسب الكثير من المنظرين - التحوّل نحو إجراءات أعظم ، كما فعلت مدينة نيويورك ، إذ توضع تحذيرات خاصة مكتوبة في الأماكن العامة الموزعة للكحول ، منبهة إلى أنّ

تناول الكحول قد يضر بصحة الجنين . كما أن هناك تدخلات طبية، مثل التدبير الخاص بالحوامل المريضات بالسكري ، وربما أيضا ، تقديم شكاو للقضاء بشأن الأمهات اللواتي يواصلن تناول التبغ والكحول والمخدرات بأسراف أثناء الحمل ، باعتبار الإضرار اللاحق بالجنين ، وكذلك بصفا العرق . في عام 1906 كتب طبيب بريطاني (مرحلة انكلترا الادواردية) : « بلا شك ، أن أكثر أو على وفيات الأطفال لدينا ناشئة عن التسمم الكحولي ، ويشترط مباشرة أو دون مباشرة ، ما ينشأ عن هذه الحالة المرضية . إن الانتشار الواسع للتسمم الكحولي لدى النساء ، خاصة أثناء المرحلة التناسلية من الحياة ، هو من العوامل الأكثر أهمية المتسببة في انحطاط العرق » . وكتب جورج سيمز (صحافي من هذه الفترة) : « ماذا يمكن أن يكون مستقبل امبراطوريتنا ، إذا كان معدل 120.000 طفل يواصلون الموت سنوياً في أول سنة من حياتهم ؟! » وهو يقدر أن الأمومة السيئة هي السبب الأكبر (3) .

د - من الأحكام الخلقية إلى الأنظمة العمومية :

يقدر توماس ماري أن « الجنين يصبح مريضاً » لصالحه يصبح من شأن الطبيب . فهناك لدى الطبيب مريضان : الأم والابن الذي لم يولد بعد . ولكن صالح هذا المريض رهين صالح المريض الآخر ، فكل تدخل في الجنين يمر عبر جسد الأم . لكن قد ترفض الأم عقارا صالحا بالجنين ولكنه مؤذ لها . فينبغي على الطبيب أن يقف مع هذه المعادلة الصعبة أحيانا ، أي أن يواصل العمل في توضيح تعهداته نحو الإثنين : الجنين المنتظرة ولادته ، والأم التي تحتفظ بكامل شخصيتها ومصالحها لأن فيها الجسد الذي ينمو داخله شخص لمدة . فالنساء لسن مجرد أوعية ولادة ، بل بشر يحملن ثقافة معينة بمعتقداتها الإيجابية والسلبية وصورتها عن الوجود والحياة ، وصورتها عن الولادة والموت ، وعن الحق والواجب ؛ فمن الضروري أن يتمثل الطبيب ذلك لكي يتوفق أكثر في دوره وعلاقته بالأدوار الأخرى .

لكن رغم ذلك ، تبقى عديد المشاكل عالقة. فلما يكون الجنين ذاتشوهات وشذوذات عميقة جداً وتشخيصات مرضه مظلمة جداً ، لا شيء يجبر الطبيب

على إخضاع الجنين إلى معالجة ؛ ولكن إذا ألحّ الأولياء ، على المعالجة ، قد يضطرّ الطبيب لاحترام مُنيّتهم . وفي حالات أخرى ، يرفض الأولياء السّماح للإطار الطّبيّ بإجراء جراحة تقويّة خوفا من مضاعفات .

فالقرار أحيانا يصبح معقّدا . ولكنّ الشّائع أنّ « قرار المعالجة يعود حصرا إلى الأولياء » ، رغم أنّ « للمجتمع حقّ التدخّل في الأطفال وحقّ حمايتهم من الأولياء الذين يرفضون رعايتهم (ومنها المعالجة) ، لماتلك المعالجة لا تمثّل ثقلا خطيرا ولما تكون أوّلَى ليكون الحمل لنوعية حياة جديدة » (4) ، وخاصة لما تكون فرصة إمهال الأولياء للتّفكير غير ممكنة لخرج المشكل المرضي . ففي أحيان كثيرة ينبغي عدم النّظر إلى الأطفال باعتبارهم ملكيّة للأولياء ، بل باعتبارهم مرضى بحقهم الشّخصي . كتب بارثولوميو : « حقيقة أنّ تبعية الطفل لأولياء ، ينبغي أن لا تؤخذ بمعنى أنّ الطفل ملك منقول إلى حذّبيد » (5) . فيجب على الأولياء أن لا يراعوا رغباتهم فحسب ، بل يجب أن يعلّموا مصالح الطفل ، فهناك حدود أخلاقيّة لقبولهم لمعالجة الجنين أو رفضها .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

خاتمة :

- إثبات أنّ للنّساء واجبات خُلقية نحو أبنائهنّ الذين لم يولدوا بعد ، لا يبرّر أوتوماتيكيا السّياسات القسريّة العموميّة لإجبارهنّ على إنجاز هذه الواجبات .
- إنّ مشاركة الآباء والأمّهات في هذه الواجبات أمر مساعد على تحمّلهنّ للمسؤوليّة . فينبغي على الطبيب والمجتمع أن يكونا حذرين في استعمال النّفوذ والقوّة لفرض مفاهيم في الواجبات الأموميّة . فالفرض الفعّال قد يتطلّب انتهاكا إكراهيا لجسد المرأة أو حجزا مطوّلا له . قد يقتضي الأمر تغييرا ثقافيا في صورة الجسد وصورة الحمل وصورة الجنين ، وغيرها ، بحيث أنّ المسألة أوسع من النّطاق الطّبيّ .

- علاقة الطبيب بالجنين ، علاقة معقّدة يشقّها صراع أدوار مختلفة وأحيانا متناقضة . ينبغي على مؤسّسات المجتمع وقوانينه والأولياء أن يتفهّموا العبء الأخلاقي للأمر ، لتسهيل مهمّة الطّبيب .

اعتبارات ثقافية في ظاهرة طفل الأنابيب :

« 14 . 1 . 1962 : أعلن اليوم أن الأستاذ دانيال بروتشي (الاطيالي) أحد علماء الأحياء ، استطاع أن يلقح نطفة الرجل والمرأة في خارج رحم الأم ، وأن يوجد جنينا يقوم بتربيته بصورة مخبرية » .

« لقد أكد العالم الإيطالي أن الفلم الذي صورّه ، يوضح كيفية دخول الكائن المنوي في البويضة داخل أنبوب الإختبار . والنطفة التي انعقدت بهذه الصورة استمرت في النمو لمدة 29 يوما » . هذا ما أعلنته وكالات الأنباء . وما من شك أن هذه التجارب ونتائجها ترتبط بمسائل أخلاقية واجتماعية وقانونية عديدة ومتداخلة .

فقد طالب البعض بأن تتوقف هذه التجارب إلى أن ينتهي الجدل بين المتخصصين في هذه الميادين إلى نتائج محددة ؛ بينما سارعت المحافل الكاثوليكية وهيئة الفاتيكان إلى إعلان أن هذه الإختبارات تفسد روح البشرية وأخلاقيها ، وأن العلماء يجب أن يمتنعوا مثل هذه التجارب التي تؤدي إلى وجود موجود حي ثم قتله . بينما رأت فيه الكثير من المحافل البروتستانتية أن هذا الموجود المخبري لا يختلف عن الموجود العادي ، فهناك كائن منوي يعشق بويضة ويصير سببا لظهور الإنسان .

من المؤكد أن الأسرة أهم الأنظمة الاجتماعية جميعا ، بل هي حاجة إنسانية ، وحق لكل قادر ، فتهديد الانفجار السكاني لا يبرر عدم تقديم المساعدة إلى كل من يعاني من حالة عقم أو مرض يمنعه من الإنجاب . إن الرغبة في الإنجاب يجب أن يوضع بين الرغبات الأساسية للإنسان . فتجارب طفل الأنابيب تجري من أجل تحقيق رغبة إنسانية حادة في إطار العلاج الطبيعى للزوجين أو أحدهما ، مما يمنحهما الشعور بالاستمرار والبقاء ، ولعل الأسرة الفقيرة التي يعاني أحد زوجها من معيقات إنجاب أحوج لهذه الوسائل المخبرية من الأسرة المرفهة .

إن خوض تجربة طفل الأنابيب قد لا يؤثر في التكوين البيولوجي للجنين . أما من الناحية الاجتماعية والنفسية ، فإن حصول مشكلات أمر غير مستبعد . يقول الدكتور باتريك : « هناك حواجز نفسية واجتماعية يتعين على طفل الأنابيب

خوضها قبل أن يحقق التوافق الكامل مع المجتمع . « فمواقف أفراد المجتمع من وجود هذا الطفل محدّدة . في أكثر الأحوال . في ثمره الذاتي ، فحينما تهتز فكرة القبول الاجتماعي لأي سبب من الأسباب ، تنشأ على الفور مجموعة من الصراعات في شخصية الطفل ، وربما تبقى عالقة بها طول حياته . وأساس فكرة القبول الاجتماعي هو صورة شرعية النسب للوالدين ، وهي فكرة متكيفة مع السياق الثقافي للمجتمع .

ومن ناحية أخرى ، هناك مشكل التباس طفل الأنابيب بالصناعة ، فهناك من يلحقونه هواميا بقرابة ما بالتقانة والاصطناع والتحويل الكيميائي ، في حين أن مكوناته بيولوجية ، بشرية ، عادية . ومن ثمة تكون النظرة إليه دونية ، باعتباره كائنا قاصرا أو أدنى . تقول ليسلي بروان أم الطفلة لويز ، أوك طفل أنابيب : « أخشى أن ينظر الناس إلى ابنتي باعتبارها دميمة تحمل عبارة (صنعت في إنكلترا) » .

هناك مجموعة من العوامل المتشابهة التي تؤثر في قبول الجديد ، منها قدرة النظام الثقافي القائم على تحمل الطارئ ، والأحكام التي تطورها الجماعة ، ومدى قابلية الجديد للتكيف مع رموزات المجتمع ، ومدى قدرة الأفراد على تفهم التقدم العلمي قبل الحكم على نتائجه الاجتماعية .

<http://Archiveb> على نماذجها الاجتماعية

الحواشي :

1 - انظر فوزية رمضان أيوب : « علم الاجتماع الطبي » ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة 1985 (الفصل الرابع) .

2 - Embryotoxic

3 - انظر : توماس هـ . مروي .

Thomas H Murray Ph D : Moral obligations to the not - yet born : the Fetus as patient : in Clinics and perinatology : vol 14 n 2 June 1987 (p 340)

4 - انظر : جون جـ . بارس ، ومايكل دـ . شراير .

John J Paris and Michael D Schreiber: Parental Discretion in refusal of treatment for new-borns : Areal but limitid right in Elinics in perinatology vol 23 n 3 september 1996 (P 574)

5 - المصدر السابق (ص 575) .

الصّين القديمة

ملحمة الإبداع والخلود

بقلم : طارق العمراوي

تعدّ الحضارة الصّينيّة من أعرق الحضارات إبداعا وفلسفة وعمارة فقد خلّد لنا كونفشيوس حكمه وفلسفته الإنسانيّة التي ما زالت تدرس إلى الآن وخلف لنا جيل المبدعين في كلّ الحقب التّاريخيّة سور الصّين العظيم ، الخزف الصّيني المميّز ، البرونزيّات ذات الأشكال والزينة التّوعيّة ، العمارة من كهوف ونحت وقصور الأباطرة وقبورهم وغيرها من الشّواهد التّاريخيّة الضّاربة في القدم والممتدّة إلى الآن وغدا في مسيرة نحو الخلود والبقاء الأزلي .

إنّ هذه المسيرة المحكّمة بعبقريّة فذة حاولت منذ أقدم العصور قدوين معتقداتها وطقوسها الكهنوتيّة ومجموع معاهداتها والأوامر والأحكام الإمبراطوريّة على الفخّار ، البرونز وجدران المقابر ... وفي وقت كانت بعض الشّعوب تتعرّف على الطّبيعة وتخشاها وتعيش حياة بدائيّة .

وأمام هذا الثّراء المتنوّع لا يمكننا الوقوف على مجموع خصائص وميزات هذا الإرث المتراكم وقد سلكتنا في هذه القراءة مسلك شاهدين من كلّ خاصيّة: الفخّار والبرونز كمادتين وزهرة اللّوتس والتّنين كبعدين رمزيّين داخل المنظومة المعرفيّة للحضارة الصّينيّة قديما .

1 - في المادة :

أ - الفخار الصيني :

بعد الفخار الصيني أحد مفاخر الإنسان منذ آلاف السنين فيه استطاع إنجاح حياته الخاصة عبر الإستعمالات العدة لهذه المادة كالجرار للماء ، والقدر للطبخ أو الكؤوس للشرب ليتعداها بعد ذلك إلى ممارسة فنونه الجمالية كالرسم إنطلاقاً من قواعد طقوسية - طوطمية ميّزت تلك المجتمعات .

وها هي الحضارة الصينية تخلف لنا مقابرها وخرائب مدنها العديد من الإبداعات التي تفتنت فيها الأسر الملكية الحاكمة منذ أقدم العصور ومنها الجرة الفخارية الملونة التي تم اكتشافها بمدينة " لانتسو" ويعود تاريخها إلى 5000 سنة . كما تم اكتشاف كنز في جرتين فخاريتين يحتوي على أكثر من 1000 قطعة ويرجع إلى أسرة تانغ الملكية .

هذا وقد خلفت لنا أسرة هان مجموعة من التماثيل الفخارية لبهلوانيين وموسيقيين وزوج من الطيور الفخارية بأحد القصور ، إلى جانب العديد من الأواني الفخارية . كما لا يجب أن يفوتنا ذكر النقلة النوعية في تاريخ الخزف الصيني والذي أحدثته أسرة يوان الملكية وهو الخزف الأزرق والأبيض اللون .

أما عن أنواع الفخار الصيني فهي متعددة منها الفخار المشوي الصلب ، الفخار الرمادي الصلب ، غير مطلي والمطلي بالطين كما استعملت فيه العديد من الألوان كالأزرق ، الأبيض والأسود ... مستغلاً في كل ذلك الرسوم والخطوط كالخطوط المجدولة ، الخطوط الشبيهة بالخصير أو بالمرمعات ، أسطر متقطعة ، مثلثات ودوائر أو رسوم غالباً ما ارتبطت بعقائد وأساطير تلك الشعوب ، حياتهم اليومية وغيرها من المشاهد المزركشة بالأوراق النباتية ، السحب أو عالم الحيوان كاللقلق ، الحوت ، الغزال ، العصفير ، الضفادع والعنقاء كما في مثال " ابرق خزفي مسطح على هيئة عنقاء : طائر مزين بالزهور الزرقاء ويعود لعهد أسرة يوان

الملكيّة 1271 . 1368 . اكتشف عام 1970 في بيكين " (1) وغالبا ما تسبق الزينة طبقة بيضاء ...

فكما استطاع الفخّار الصّيني أن يميّز الأسر الملكيّة الحاكمة في العصور الغابرة إلى جانب العديد من الإبداعات الأخرى فإنّه مثل وثيقة أركيولوجيّة هامة مدّتنا بالعديد من المعطيات أوكلها تطوّر فنّ الخزف عبر العصور ، تتبّع المسيرة الفنيّة للرّسم هذا الفن الذي تطوّر وقدم أجمل وأروع اللّوحات الفنيّة على الورق ، على الخزف ، على جدران المقابر والمعابد ، والمعطيات التّاريخيّة المهمّة التي وفّرتها المادّة الخزفيّة الصّينيّة كما في مثال أقدم إنا ، فخّار يعود لفترة النيولتيك وقد شوهدت مجموعة بدائيّة وهي ترقص جماعيّا (2) أولتها الدّراسات الموسيقيّة الباحثة في تاريخ هذا الفن أهميّة قصوى إلى جانب العديد من الأواني الفخاريّة التي امدّت هذه الدّراسات بالآلات الموسيقيّة وبأنواع الرّقصات التي ميّزت تلك الحقبة التّاريخيّة الغابرة ليلقى الفخّار الصّيني أحد أهمّ مفاخر الحضارة قديما وحديثا .

ARCHIVE

http://Archivebeta.Sakhr.com

ب - البرونزيّات الصّينيّة :

إنّ إنتاجات الحضارة الصّينيّة متنوّعة كمّا وكيفيا وقد لامست كافة الميادين والحقول أكانت معرفيّة أم معماريّة وها هو البرونز قد طوّعه الصّيني منذ آلاف السّنين إلى تقنيّاته ، إلى معارفه وأفكاره ومواقفه تجاه إشكاليّات الحياة المتنوّعة وها هي مقابر الأباطرة والطّبقة الحاكمة ، قصورهم وخرائب المدن القديمة قد أبقت ويكميات كبيرة على هذه المادّة أين جلبت تاريخيّا اهتمام علماء الآثار حيث الصّينيين وغيرهم لما مثلته من وثيقة أثرية مهمّة لامست الفنيّة والحرفيّة في تطوّر التّعدين وفنّ التّرصيع ، بكتابتها الزخرفيّة والتوثيقيّة ، بمشاهدها الأسطوريّة والطّقوسيّة وغيرها من الأبعاد والرّموز .

إذا استطاعت الحضارة الصّينيّة تطويع هذه المادّة للإستعمالات الحيّاتيّة وقتها مثل أدوات المطبخ كالقدور ، أوعية الخمر ذات الأشكال المتعدّدة ، أدوات خزن

المواد الغذائية وجرار الماء البرونزية إلى الآلات الموسيقية وخوذات المحاربين ،
القناديل ، المصابيح ، المباخر وأدوات الزينة وغيرها . فكما كوّنت الأسر
الحاكمة بالصين تاريخا حافلا بالمعارك والحروب لتوحيد الإمبراطورية أو لتجزئة
أقسامها إلا أنها لعبت أدوارا هامة في تطور هذه الأواني البرونزية كأسرة " تشو"
التي تميّزت بأوانيها بالزينة والتصاميم المعقدة ومع أسرة " شانغ " بدأت الصين
سيك الأواني البرونزية على أشكال حيوانات وخلفت لنا أسرة تانغ 618 . 907
المرأة البرونزية " الشخص - الزهرة - الطير" ذات طبقات مرصعة بالذهب والفضة
طلبت بدهان اللك الرقيق ثم صقلت وصارت ملساء للغاية . وهذه مبخرة "بوهشان"
البرونزية المرصعة بالذهب تعود لأواسط عهد أسرة "هان" الغربية الملكية واكتشفت
عام 1968 في "مانتشنغ" في مقاطعة خبي .

أما عن النقوش والزخرفة فقد توزعت بين الإستهتمالات المختلفة لمشاهد الصيد
والوليمة ، المعارك البرمائية وقطف أوراق الثور ورمي السهام ومشاهد التنين
والعنقاء واصطياد النسر وركوب الخيل والأفاعي الصغيرة المنتصبة على حافة
بعض الأوعية .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كما التصق الخط والكلمات والمقاطع بالعديد من الأواني أين لوحظ الخط
الطيري وهو شكل قديم من الخطوط الزخرفية حيث مثلت إلى جانب جمالياتها
دليل توثيقي إعلامي هام أغنى البحوث التاريخية مثل وحدة وزن برونزية نقش
عليها أمران للإمبراطورين الأول والثاني يعكسان توحيد مملكة " تشين" للصين
وتأسيس حكومة مركزية .

وهذا وعاء خمر "حتسون" من أوائل أسرة "تشو" الغربية واحتوى على 122
مقطعا صينيًا المنقوش على أسفله كيف قرّر الملك " وو" من أسرة "تشو" نقل
عاصمته إلى منطقة لويانغ الإدارية اليوم بعد الإطاحة بأسرة شانغ .
وعلى قِدر آخر 207 مقطعا منقوشة على السطح الداخلي كيفية نقل ملكية
الأراضي بين الموطف " وى " ورئيس الولاية " لي " كما نلمس الدقة والحبكة عند

الأواني البرونزية التي على شاكلة حيوان وهي متعددة ومنها مصباح برونزي على شكل طير قرمزي فاتح جناحيه يحمل في منقاره طبقاً مستديراً فوقه ثلاثة شمعدانات أو الحصان البرونزي كتحفة مميزة ويعود تاريخه إلى 2000 سنة وهو رشيق يعدو ويصهل رافعاً رأسه وذيله أو وعاء خمر على شكل بقرة أو كركدن، كما استخرجت بومة من البرونز واقفة وعلى رأسها يحط طائر صغير وعلى ذيلها طير آخر ناشر جناحيه. كما استعمل البرونز كأسلحة ومسامير للتوابيت .

أما الأواني النوعية فهي كالآتي : "سوجيو" وعاء لشرب الخمر من أوائل أسرة شانغ ، عثر عليه في يانشي . مقاطعة "خنان" ويعتبر من أقدم الأواني البرونزية الصينية المكتشفة حتى اليوم . قدر "سموو" من أواسط أسرة شانغ ، قد استخرجت في "نيانغ" ، مقاطعة خنان وهي أكبر أواني البرونز الصينية القديمة المكتشفة حتى اليوم يبلغ علوها 133 سم وتزن 875 كغ . كما تم اكتشاف التابوت الوحيد عام 1964 يبلغ طوله 2.2 م ، يزن 300 كغ (3) وتزن أكبر قاعة برونز 200 طنًا وبمساحة تقدر بـ 20 م (4) وجرس يزن 46.5 طنًا (5) .

إن البرونزيات الصينية إلى جانب أهميتها وثيقة أثرية أغنت وتغني البحوث الأثرية والتاريخية لما احتوته من كتابات توثيقية لأحداث وحروب أو لتتبع تطور صناعتها وقتها إلا أنها تمثل مخفاً ثقياً غاب في الإلتقان والحرفية .

2 - في المنظومة المعرفية :

أ - التثنية الصيني :

إن غناء الحضارة الصينية لا يقف فقط حد العماره والشواهد المعمارية كالسور العظيم بل يتعداها إلى الثروة المعرفية والفلسفية التي غذت هذه الحضارة حتى اليوم وكمثال استوقفنا لطرافته أولاً ولاشترাকে مع الحضارات الأخرى ولوزنه الأسطوري والمعرفي لدى الصينيين القدامى .

إن التثنية كموضوع لنصّ ميشولوجي متميز تحدثت عنه النصوص التوراتية البابلية ، السومرية وما أحدثه من قلق أثناء بدء الكون أو في صراع الآلهة أو في مدى صحة وجوده مع النصوص المتأخرة .

لكن ما ميز التثنية في المنظومة المعرفية لدى الصيني منذ قديم الزمان هو

اعتبارهم من أنسال الثنَّانين عكس النصوص القديمة الأخرى فهذا الثنَّين السومري "كور" الإله المطلق لعالم الموت والظلام يخرج من باطن الأرض محاولاً إرجاع الحياة إلى الظلام . وهذا جلجامش يصارع الثنَّين الرهيب في المسيحية .

أمّا عن الثنَّين الصَّيني فقد تشكَّل من شعر الخيل ، قرون الأيل ، ذيل الكلب ومخاليه وحراشف السمك ولحيته في صورة ميثولوجية سحرية مصبغا عليها فيما بعد رموزه ، تقاليد أعياده والأبعاد المعمارية والتي غالباً ماالتصقت برموز الثنَّين وأولاده التسعة فكلُّ ثنَّين رمزيته وحقله المعرفي الخاص به والموزعة بين : تحمُّل الأثقال ، حبب النظر إلى أبعد ، يميل إلى الزمجرة ، يحب المياه ، القتال ، البخور وآثرهم الإعتكاف ... فهو في كلِّ هذا حيوان سماوي من مهامه إيجاد السحاب والمطر كما ذكرت بعض الأساطير غطرسه ، كما الحديث عن أكلة "تسونغتسي" أين كان الثنَّين يأكل القرايين لذلك إلتهجاً الناس للف الأرز بأوراق الأزادخت وأن تربطها بخيوط ملوَّنة لأن الثنَّين يخاف من هذين الشبَّين (6) كما اعتبر طوطم بعض القبائل البدائية وبما أنَّه ابن السماء فقد ركبهُ الإمبراطور الأصفر وصعد إلى السماء كما يسكب السَّحاب في السماء على الأرض القادرة على الوقاية من الأمراض وغيرها من الأساطير الذَّكَرَة لقوَّته وقدرته وجبروته وتزوَّجه من النساء كما في أسطورة " أه شيانغ " الأميرة الثالثة للملك الثنَّين وقصَّتها مع الصيَّاد .

فكما بنيت له المعابد ليهب النَّاس الأمطار أقيمت لأجله الأعياد بتقاليدها وأساطيرها التابعة لها لتتواصل حتَّى الآن في شكل مهرجانات جهويَّة ووطنية كيوم ثنَّين الرَّبيع وعاداته تختلف من مقاطعة لأخرى ومنها عدم استعمال الإبرة خشية أن تحرق عين الثنَّين فتثير انتقامه ورسم ثنَّين بالرماد أو السكر وجلبه إلى البيت ليصبح غنيّاً وغيرها من العادات في عيد قارب الثنَّين والذي يعتبر واحداً من ثلاثة أعياد شعبية رئيسية في الصَّين .

أمّا عن الشواهد المعمارية وغيرها العاكسة لمجوع المعتقدات الكهنوتية فلنا أمثلة عديدة نذكر منها مقبض الناقوس على شاكلة الثنَّين " بولاو" كما ترسم صورة الثنَّين الخامس على الأدوات القربانية ، زخرفة القناطر ، زخرفة السيوف ، تزيين مباخر المعابد أو قواعد الأنصاب الجنائزية ...

إن البحث في ماهية التين ورمزيته هو بحث يمس تطور النص الأسطوري الصيني ورمزيته كحلقة تلاحق حضاري مع الشعوب الأخرى وملامسة صفحة من صفحات غناء الميراث الحضاري الصيني .

ب - زهرة اللوتس :

وأنت تتصفح مراجعك ومصادر نصوصك تجد نفسك سجين هذا الغناء وهذه الفلسفة الحياتية المميزة فمن التين كنص يحتاج منا مزيدا من الدراسة والتعمق . إلى زهرة اللوتس كحلقة ثانية للإلتقاء والتباعد مع الحضارات الأخرى . فزهرة اللوتس وقف عند إعطائها المصري في القديم أبعاده اللاهوتية داخل منظومته المعرفية وقدسها ، كانت حاضرة في رسوم مقابره ، على برديات كتاب الموتى وذات تواجد نوعي داخل تفاصيل المحكمة الاوزيرية . وها هي الحضارة الصينية تشق نفس الطريق وفي اتجاهين :

أولهما : رمزيته داخل مجمرع تراكيب التصورات العامة حول الحياة والكون وقد دلت على الصفاء والوفاء وتحول الحظ العائر إلى حظ طيب عندما تجتمع جذور اللوتس وغيرها من الإضافات والأصناف وتقدم في عشية العام الجديد بمقاطعة " تشجيانغ " كما تمتلك حينها أسطورة له نوعية خاصة متميزة تتراعى أطرافه عند أساطير الأعياد الصينية الضارية في القدم كما في مثال " عيد الفوانيس " أين تأخذ بعض هذه الفوانيس أشكالا بشرية كما " شي شي تجمع بذور اللوتس " .

و " شي شي " هذه حسناء بارعة الجمال أرسلها ملك مملكة " يوه " هدية إلى ملك مملكة " وو " الذي كان قد تغلب على قومها ليتنافس في الأخير المشاركون في إخراج هذه الفوانيس وغيرها كفانوس الطاووس وفانوس اللوتس ، أو في عيد منتصف العام ، و " في ذلك اليوم من الشهر تصنع كل أسرة بعض فوانيس اللوتس وتتركها على جانب الطريق للأرواح الخاطئة حتى تستطيع أن تتقمص جسدا جديدا " (7) أوفي عيد منتصف الحزيف وغيرها .

ثانيهما : انعكاس هذه الزهرة وتواجدها كعنصر زخرفي جمالي على الأدوات المعيشية أو التي ترتبط بطقوس معابدهم كما في مثال المبخرة الفضية الخماسية

الأرجل مموّهة بالذهب ومزينة بصور السلحفاة وزهر اللّوتس ترجع إلى 869 م ،
 زهرية على شكل اللّوتس المتسلّق ارتفاعها 50.4 سم ، إبريق خمرخفي في وعاء
 خزفي على شكل زهرة اللّوتس من عهد أسرة سونغ 420 - 479 م كما اتّخذت
 اسما لأحد الكهوف أين رسمت وبحجم كبير على سقفه وموضوعا لأحد
 الرقصات الصينية والتي غالبا ما تجمع بين الفنية ، الجمالية والموضوع ذي الهدف
 النوعي كرقصة زهرة اللّوتس والتي تغني السّلام والحياة الهنيئة يقوم بأداء
 حركاتها الرشيقة والمعبرة فتيات ذوات تنّور أخضر مزين بأربعة زهرات وأوراقها
 وكأنّهن فوق الماء كما زينت هذه الزهرة الأقمشة الحريرية وغيرها .

إن زهرة اللّوتس ذات الإعتبارات الرّمزية والأسطورية تخرج وبارادة الصّيني
 من حيزها النظري والرّمزي الضيق إلى عنصر زخرفي يميّز أضفى جماليته ورونقه
 على أدوات عيشه وتعبده كغيرها من الرّموز .

نحو نظرة أخرى :

إن حضارة بهذه الأبعاد وغيرها التي لم نقف عندها لا يمكننا تغافلها وعدم
 الإقصاح عن كنوزها وذخائرها بل توجب أن نلفت إليها الأنظار والأفهام لمزيد
 التعمّق في خباياها وطلاصة جواهر أسسها والتغلّب بين معالمها وعمارتها وما
 ذكرته هي ملاحظات للوقوف وللتقريب هذا الإرث العظيم إرث الممالك المتحاربة
 وغيرهم .

الهوامش :

1 - مكتشفات أثرية جديدة في الصّين : مجموعة مؤلّفين صينيين - دار النّشر باللّغات الأجنبية
 بكين 1975 .

2 Histoiredela danse chinoise : Wang Kefen Editions en langues étrangères 1er
 éd 1988

3 Records de chine : Du Feibao éditions en langues étrangères 1er éd 1990 p109

4 Records de chine : Du Feibao éditions en langues étrangères 1er éd 1990 p109

5 Records de chine : Du Feibao éditions en langues étrangères 1er éd 1990 p 111

6 - العادات الشعبيّة في الأعياد الصينية : تشي شينغ دار النّشر باللّغات الأجنبية بكين ص
 55 .

7 - نفس المرجع ص 71 .

حوار مع القاصّة رشيدة الشارني

أنوبي الإنطلاق في عالم الرواية بعمل جدّي .

فازت القاصّة رشيدة الشارني مؤخراً بجائزة زبيدة بشير للإبداع النّسائي لسنة 1997 . هذه الجائزة التي يشترك في تقديمها كلّ من الكريديف والنّادي الثّقافي الطّاهر الحدّاد . وذلك عن كتابها القصصي " الحياة على حافة الدّنيا " ورغم أنّه باكورة أعمالها . إلّا أنّه حرّر السّاحة الثّقافيّة وكتب عنها الكثير وتناوله غديد المبدعين والجامعين بالنّظر والتحليل . بهذه المناسبة أجرت الإنّحاء مع رشيدة الشارني اللقاء التّالي .

الإنّحاء : كيف جئت إلى عالم الكتابة ؟

* جئت فجأة . لم أقرّر في يوم من الأيام أن أصبح كاتبة . بالرّغم أنّي كنت مولعة منذ طفولتي بالمطالعة ومصفوفة أثناء دواسي الثّانويّة في الأدب العربي وأمارس الكتابة بشكل منتظم وحقّي ولكنّي لا أفعل ذلك بدافع التّظاهر الكاذب في اليوم التّالي أمام الأصدقاء أو تسجيل اسمي على صفحات إحدى المرائد . بل حاجة داخلية مبهمّة ولرغبة في التّفنيس عمّا يؤلّمني ويشحذ رأسي الصّغير بالأسئلة الكبيرة ..

في تلك السنّ المبكّرة لم تكن الكتابة تشكّل هاجسي الأكبر ولم تكن أشكال الحياة تهمّني بالأساس ... كان بداخلي ضجيج وفوضى وكان الوجه الخلفي للحياة هو الذي يجذبني نحوه ، نذرت نفسي للضياع والبحث مدفوعة بدمائي الجبليّة الحارّة . خضت تجارب مختلفة وقاسية نثرتني فيها الهزيمة وفتّنت عمري ولكنّي برغم كلّ ذلك حافظت على نفسي من التشوّه ... وذات شتاء عاصف انفجر بي الوضع فجأة وفتّنت آلامي ... ولم أجد طريقة لترميم ذاتي والمحافظة على توازني النّفسي سوى باللّجوء للكتابة وخوض تجربتها بجديّة أكبر . إنّنا لا ندرك خطر فعل الكتابة وقوتها إلّا في الأوقات الحرجة .

الإحجام : لماذا تبدو كتاباتك قافئة إلى حد ما ؟

* لأنَّ الحقائق عادة ما تكون مؤلمة لأنَّ أكبر سؤال يواجه الإنسانية مازال ملفوفاً بغموض مريب منذ ملايين السنين ... لأنَّ الإنسان كائن مهتدٍ بالتشوّه والإنقراض . لأنَّ المناطق المجهولة في ذواتنا كثيرة وقافئة ولأنَّني امرأة لا تستطيع أن تحيا سوى في هذه المناطق ولا تتحدّث إلا على أساس ما يدور فيها ... كثير من أقاربي يستغربون تأويلي السلبي للعديد من الأشياء ، ولكن بعد مدّة يعودون إليّ مقرّين بصحّة رأيي ... لقد علّمتني الأيام أن أواجه الأسئلة المحرّجة وأتعامل مع عنف الواقع بعنف (معنوي) أشدّ. أكره تجميل الحقائق وتملّق الأمور .

الإحجام : هل الكتابة فعل تلقائي أو مدروس ؟

* هي قبل كلّ شيء ، مادةٌ فكريّة خضعت قبل أن تتبلور إلى معاشة وتفاعل مع أحداثها وتحليل وتشريح لها وهي تحتاج إلى قالب فنيّ لصبّها فيه وهذا بدوره يتطلب قراءات مكثّفة ومدروسة ليس فقط للأعمال الإبداعية التي تتناول النّوع الأدبي الذي تدرسه ويبحث فيه ... فليس من المعقول مثلاً أن نكتب القصّة القصيرة دون معرفة بشروطها أو ننظم القصيد دون معرفة باللغة ومستويات الخطاب الشعري ...

المعرفة بأشكال الكتابة أمر أساسي بالنسبة لأيّ مبدع كما أن التمرّد على أنماطها وارد جداً ... لا بدّ من هندسة الشّكل الفنّي للعمل قبل الشّروع في بنائه . كثير من المواضيع الجادّة ضاعت بسبب ضعف المستوى الفنّي وكثير من المواضيع البسيطة نجحت ووجدت طريقها للقارئ بسبب حذق صاحبها للحبكة الفنية ... في " الحياة على حافة الدّنيا " انطلقت من رؤيتي الخاصّة لفنّ القصّة القصيرة . لم أشأ أن أكون بصمة أخرى لأيّ كاتب آخر مهما كانت درجة إعجابي به ... ولكن نسبة الحقيقة في قصصي عالية جداً لذلك يبدو فيها السّرد تلقائيّاً إلى حدّ كبير ومتّسماً بالشفافيّة والصدّق .

الإحجام : ما مدى التقاطع بين الواقع الموضوعي والواقع الإبداعي فيما تكتبين ؟

* الواقع الموضوعي هو الذي يزودني بمادّة الكتابة وهو الذي يشحنني بالمواضيع .

لست كاتبة تعيش في برج عاجي ولا أتصور أنني سأعاني ذات يوم من عقدة تفوق غبية وأخفي نفسي عن العالم ... لقد عايشَت أنا وأصِلت بهم المعاناة إلى حضيض الوضع ولم يكن احتكاكي بهم كمجرد متفرجة تتسلى بأزماتهم أو كشاهدة سلبية على أوضاعهم ... بل كطرف ملاصق لها ومتأثر بها ... الواقع الإبداعي يتمثل في نقل هذه التجارب إلى النص ومنحها فعل الصبرورة وهذا يفرض شروطا معينة أهمها تحقيق الجمالية الفنية والمتعة وأذهب إلى أبعد من ذلك : تحقيق التوتر والذهشة لدى القارئ ودفعه للحوار الذاتي وطرح الأسئلة العميقة .

" الحياة على حافة الدنيا " قصص استفادت كثيرا من الواقع ومن تجاربي الشخصية ولكن الذاتية فيها (وكما لاحظ الكثيرون) ليست ذاتية مغلقة إنها مفتوحة على تجارب الآخرين إذ تختصر تجربة الشخصية المحورية في القصة الواحدة تجارب فئة كبيرة من الناس .

الإحاف : ما الفرق بين متعة الكتابة ومتعة القراءة ؟

* متعة القراءة تتمثل في اكتشاف عوالم مجهولها والإطلاع على تجارب راقية يمكن أن تحدث لدينا تطورا ونشغف منها ... كثيرا ما تولد لدي الأعمال الكبيرة حالة من التوتر والإستنفار النفسي فأتوقف عن القراءة لأسترد صلابة أعصابي وأهضم ذهولي وأنظم زحف أسئلتي ... أقرأ عادة ببطء وتأن شديدتين .

الكتابة عندي ليست متعة سوى في مرحلتها النهائية إنها حالة عذاب ولكنه مزوج في آخر الأمر بشعور عذب وهي صعبة المراس ، عصية في بعض الأحيان . تتطلب إصرارا على تطويع اللغة وجهدا نفسيا في لفظ شحنة أفكارنا ... هي لحظات عشوائية في بدايتها ولكنها أيضا متقدة ومزوجة باحساس رائع ومتع .

الإحاف : كتبت القصة القصيرة فماذا عن الرواية والشعر ؟

* بدأت كأكثر الكتاب بكتابة الشعر وهو في تقديري حالة وجدانية عالية ... غير أنني اكتشفت بسرعة أنني أحتاج إلى مساحة أوسع وفضاء أرحب أنقل إليها أسئلتي وأتحرك فيهما بحرية أكبر سيما وأنتي وجدت في نفسي استعدادا كبيرا

للتعامل مع نسيج النص برحابة صدر العنكبوت وتفانيه ...
كما أنني كرهت أن أكون مجرد رقم يضاف إلى أولئك الذين ينسجون كلاما
سخيفا أو ثروة عقيمة ينشرونها في زهو بين الناس ... لا أريد لتجربتي أن
تضيع هباء في مجرد محاولات بائسة ... الآن أصبح الأمر يتعلق بالذائقة
الشخصية والاستعداد النفسي والقدرة على توظيف أدوات فنية دون غيرها ...
القصة عندي ما هي إلا وقفة تهيء لدخول عالم الرواية التي أنوي الإنطلاق فيها
بعمل جدي ...

الإبحار : لمن تكتبين ؟

* أكتب للمهتمّين ، للمقربين ، لأولئك الذين يشّون في صمت المتخفّين وراء
الجدران المنسّبة ... أكتب للمستقلين والمقهورين ولمن أهدرت أعمارهم بسبب
تصرّفات ظالمة ... أحاول أن أجعل لهؤلاء صوتا وأحمل قلبي أنينهم . عندما
أعلنت السيّدّة نزهة زروق الوزيرة المكلفة بشؤون المرأة فوزي بجائزة زبيدة بشير
لأفضل عمل أدبي نسائي صادر سنة 1997 أحسست لأول وهلة أنني محاطة
بتلك الوجوه المعذّبة التي رأيتها في زوايا معيّنة من هذه الأرض وأنها تشدّ علي
يدي وتهنّئني ...

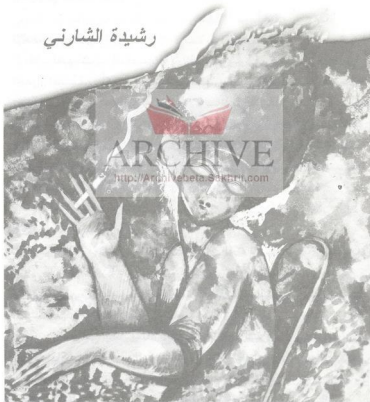
الإبحار : لمن تقرأين ؟

* ركّزت قراءاتي في السّنين الأخيرة على كُتّاب القصّة القصيرة أساسا . اكتشفت
عوالم أمريكا اللاتينيّة عبر قصص بورخيس ، كورتشار ، إيزابيل اللندي ، ماركيز ،
كيروغا خوسيه ، وانبهرت بغرانيّة أحداثها وحده طابع الشّخص فيها ... كما
افتتحت لفترة بالأدب الإيطالي وخاصة أعمال بيراندello ، موراڤيا ، دينو
بوزاتي ... أعجبتني أيضا أعمال الكاتبتين التّركيتين يشار كمال وعزيز نسين ...
أقرأ حاليا كتابا لعدد من المؤلّفين الأرمن يحمل عنوان "قصّة امرأة عربيّة"
ويضمّ مختارات من القصص الأرمني .
غير أن هذا لا يعني أنني لا أقرأ لأدباء عرب ، بالعكس هناك أعمال عربيّة

الحياة على حافة الدنيا

قصص قصيرة

رشيدة الشارني



متفوّقة جداً وتضاهي أعمالاً عالمية معروفة ...
ولكن أسباباً كثيرة تقف وراء عدم انتشارها بالشكل الواسع وتأکید مكانتها .

الإحباط : ماذا عن علاقة الرجل بالمرأة في كتاباتك ؟

* تناولت في كتاباتي صوراً مختلفة لامرأة واحدة تقريباً . وهي المرأة المستلبة ، المستغلة ، المستضعفة ، ليس بسبب نقص تحمّله أو لاحتّميّة وجودها في وضع معيّن ولكن لإيمانها الداخلي بقيمة العطاء . كأجمل خاصيّة يمكن أن تحملها المرأة ولكن للأسف الشديد كثير من الأطراف الأخرى يعتبرون ذلك ضعفاً فيتمادون في استغلالها ... لذلك تشور أغلب شخصياتي النسائيّة ويتمرّدن على الوضع ... ليس هناك عداً بين المرأة والرجل في كتاباتي هناك سوء تفاهم فقط .

الكثير من النقاد انتبهوا إلى اختلاف الخطاب النسائي عندي ولبونته ... المطلوب من المرأة بشكل عام مراجعة خطابها كما هو مطلوب من أكثر الرجال مراجعة مواقفهم وعدم التعامل مع المرأة كعامل في المؤسّسة الزوجيّة واستغلال جهدها بل ككائن إنسانيّ يحتاج إلى ممارسة وعيه وتأکید وجوده الأرقى ...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الإحباط : رسم الغلاف في مجموعة " الحياة على حافة الدنيا " ماهي علاقته بمواضيع القصص ؟

* رسم الغلاف هو للفنان العراقي حسن عبد علوان وقد استوحاه من قصّة " امرأة وحيدة في مقهى مكتظ " تبدو فيه المرأة وهي جالسة في مقهى تدخّن سيجارتها في هدوء ورباطة جأش وبرأسها بركان من الأفكار ... الصّورة في شكلها العادي أبعد ما تكون عن تصوّراتي لمفهوم الحرّيّة . فأنا لا أفهمها على هذا النحو أو لمجرّد اختراق المحرّمات ... ولكن ملامح المرأة توحى بوجود عالم خفيّ بداخلها ... وأنها امرأة ممتلئة بذاتها وواعية وهذا ما يتفق مع أغلب شخص قصصي .

أجرت الحوار : جميلة النّاعي

مشاهدات

عن أحوال الناس في أوربّا

(1)

بقلم : بن حسين

في صيف 1990 ، وخلال الأيام الأولى من شهر جويلية ، قصدت إيطاليا ، ولم تكن بي حاجة للعمل ، ولكن حبّ اكتشاف الضفّة الشماليّة هو الذي دعاني إلى السّفر قلبيّت ... وقضيت هناك بعض الأشهر قبل أن أواصل الضرب في اتجاه الشّمال ، وبين هذه الرّحلة وتلك ، سجّلت عديد الذكريات والأحداث حول النّاس والمجتمع والمهاجرين ، ولعلني نسيتهما أو تناسيتهما في أحد أقبية الذاكرة لسنوات ، إلّا أنّها ظلّت تلحّ عليّ وتدعوني إلى لفظها في أول مناسبة ... وها أنّني أفعل راجيا أن تكون الكلمات قد نضجت بما فيه الكفاية وتخفّرت في أوعيتها ، حتّى تأتينا طيّبة المذاق ... <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ليس من السّهّل أن ننسى ردة الفعل التاريخيّة التي ، طلقها ابن أبي الضياف ذات زيارة إلى فرنسا ، أي إلى العالم الآخر ، ولازلنا نتذكّر قولته الشهيرة : « القوم سيقونا إلى الحضارة بأحقاب » فما الذي دفعه إلى ذلك القول ، وعلى أيّ أساس أطلق قولته التاريخيّة ؟

بعد أكثر من قرن ، نزلت بـ « ترايني »* من جزيرة صقلية ، كان الجوّ غائما وكنت مجهدا أشدّ الإجهاد بعد أن قضيت ليلة كاملة داخل الزلاجة التي انطلقت بنا ليلا من حلق الوادي ... لم تكن القاعة تتسع للمخلق الكثير الذي تجمّع هنا وهناك ، وظلّ الصّمت مطبقا على جميع الحاضرين طوال ساعات ، ربّما كان أغلبهم يفكّر في كيفيّة استقبال العالم الآخر ، عالم الحلم بعجائبه وغرائبه وأمواله

* ترايني : ميناء إيطالي ترسو فيه البواخر القادمة من بلدان المتوسط إلى صقلية ...

التي سترّد على العيال ، وتغيّر سيّ الأحوال ... ولم يكن الليل يكشف عن شيء من غموضه ، واكتفى أغلب الحاضرين بالتحديق بنظرهم في السقف ، وأكل الحبز بمصبرات "السردينة" والتدخين شراهة جعلت القاعة بعد ساعات من انطلاقنا مثل منفضة كبيرة تجمّعت في وسطها أعقاب السجائر ...

قبل ساعات قليلة من موعد الوصول ، تجمل الركابون وتردّدوا على المغاسل في أكثر من مناسبة ، إذ لم يكن من السهل مرور من لم يتجمل ويظهر اللباقة ويستعمل الحيلة وزادت الصفوف الطويلة من حيرة الحاضرين ، وبدت الرؤوس منكسة ، ناثنة عن أجسامها ، وتأكد أن دخول العالم الآخر ، بمثابة الفرصة التي لا تتوفّر للواحد ، إلا مرة واحدة طوال عمره ...

كانت الشمس ساطعة ، والناس في عجلة من أمرهم ، والمباني لا تعلو عن الأرض إلا بمقدار ... واعترضتنا مصاعب جمّة في مجابهتنا للعالم الآخر في أول مناسبة ... وتوصلنا بنباهة من يبحث عن التناجيك بكلّ الوسائل الممكنة ، لتجاوز العقبات الأولى ، ولم أجد ما يغري في الجنوب ، وربما فارقتني السكينة والراحة خلال الساعات الأولى ... وأخذتني السكينة في باقي أيام شهر جويلية إلى قرية صغيرة اسمها « فيلاترنو »* ، وسعيت منذ البداية إلى الإطلاع على أحوال الناس ، إذ بمعرفتها لوحدها يمكن أن نتعرف على العالم الآخر ، فالواضح أن قوة الغرب لم تكن عسكرية واقتصادية فحسب ، ولكنها تتعدّى ذلك لتشمل المعاملات العادية واليومي المعتاد ... وأذكر أنني نمت لساعات طويلة قرب سكة حديدية تذهب في أكثر من اتجاه ... بعد ذلك مباشرة ، نزلت في حقل كبير من الخوخ على ملك أحد الإيطاليين ، بقرب من المدينة حوالي الكيلومتر ، وابتدأت رحلة الاختلاط بالآخرين من أجناس متعدّدة ، واقتربت أكثر من الناس في محاولة للوقوف على عنصر القوة لديهم ، فأين تكمن قوة الغرب ؟

تذكّرت ما ذكره الإمام محمد عبده في أحد كتبه عن أوروبا إذ قال : « إن الأمم المتمدّنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور وتزيين الملابس وتحسين الأثاث ، إلى غير ذلك من المصارف ، فإنما يكون على نسبة مخصوصة

* فيلاترنو : مدينة صغيرة تبعد عن مدينة نابولي حوالي 20 كلم نحو الجنوب ...

من إيراداتهم الخازنين لها بالكد والتعب ... ونفقاتهم لا تجاوز حدّ اللزوم ولا تخرج عن احتياجاتهم » ... ولم يكن محمد عبده لوحده يهتم بأحوال الناس وكيفية كسب الأرزاق ، والتعامل مع الصناعة والزراعة ، ولكنه ينضمّ لما لاحظته رفاعة الطهطاوي وما ذكره طه حسين وغيره من المحتكين الأوائل بالعالم الغربي ... وتأخذ المعادلة التي ضربها محمد عبده بين الإيرادات والاحتياجات بألبانيا ، فكيف يكسب هؤلاء القوت ، وكيف يحدّدون احتياجاتهم ؟

لن أحكي عن نجوم الفن والرياضة ورجال الأعمال والصناعة ، ولكنني اتجه مباشرة إلى الإنسان العادي ، أعني التاجر والفلاح وبائع المربطات ... في هذه القرية الصغيرة برزت لنا حياة الغرب على سجيته ، فلا مكان لمن لا ينهض باكرا جادا في البحث عن لقمة عيشه ، فالعالم هنا رأسمالي ، فرداني لا يحظى فيه من لا يبادر بأية أهمية ... كنّا ننهض ابتداء من الساعة الرابعة صباحا ، نصطفّ في طوابير طويلة على ضفتي الطرقات الواسعة . تنتظر وقوف الشاحنات الفلاحية ، والجارات المبحوحة المحركات ، ينزل منها أصحابها وينتقون من الصفوف من يرونهم قادرين على العمل المجهد ، يأخذون حاجتهم على عجل وسرعان ما نسمع كلمة « باسطا »* تتردد أكثر من مرة ، حينها فقط نعلم أنّ صاحب الضيعة الفلاحية ، أخذ كفايته من السلواعة وأن من بقي على قارعة الطريق سينتظر حلول بقية الشاحنات ...

ولا تنهض الشمس مغبرة متكاسلة ، إلا والقرية مقفرة إلا من بعض الشيوخ والعجائز ، يجوبون الطرقات ، يقضون حاجاتهم ، ويحشون خطى الرجوع إلى ديارهم ... ولا يجيز تقدّم الأعمار في هذه القرية ، للكثيرين منهم النوم ولعب « الخريقة » وكافة أصناف اللعب لقتل الوقت ، ولكن الغريب أنّ الشيوخ متمسكون بالحياة أكثر من باقي الناس ، وأذكر أنّ أحدهم ، كان ينهض في ساعة مبكرة من الصبح ، يمسك بعجلة قيادة جراره الفلاحي ، فأعجب لحاله ، ويعجب الكثيرون معي ، فيقضي كامل أشهر الصيف على تلك الوتيرة ، ويذكر آخرون أنّه دأب على نفس تلك الحيوية منذ عقود من السنين ، والحال أنّي كنت مشفقا عليه

* كلمة "باسطا" باللغة الايطالية تعني يكفي وذلك دلالة على أخذ الحاجة ...

ولو كانت تربطني به قرابة ، لأجبرته على الراحة ، ونأيته عن المشقة ، فقد جاوز الثمانين من العمر ، والارتعاش أصبح واضحا للعبان على يديه ، حتّى أنّي كنت أخشى أن أجده ميّتا ذات صباح بعد أن جاوز حدود المدينة ببعض الكيلومترات...

« الماروكينو »

« ماركو » يحب المال ، ويتودّد لأيّ أجنبي ، طالما لاحظ على مشارف جيبه ذيل الأوراق الماليّة ، أمّا من لا مال له ، فلا نصيب له في الجلوس إلى حانته أو الحديث إليه ... وكان يتفنّن في إغراء المهاجرين ويخلق لهم أبواب صرف الأموال ، من اللّمة الخفيفة الصّباحيّة التي تكون بمثابة الإفطار الصّباحي ، إلى كافة أنواع المشروبات والجبن والشّرائح ، ويعمل على تخفيض أسعارها وجعلها في متناول الجميع ، ويقول المهاجرون الأوائل ممّن دأبوا على المرور بهذه القرية ، أنّه أثرى من أموال المهاجرين ، الدينار تلو الدينار ، ولئن كان يخفّض الأسعار فإنّه كان يربح بفضل كثرة الحرفاء والبشاشة التي يرسمها على ملامحه منذ الصّباح الباكر ، والتي لا تفارقه إلّا عندما يغلق أبواب المغازة ... وتعيش قرية « فيلا لثرو » على وقع المهاجرين طوال الفترة الصّيفيّة ، وأصبح التعايش مع الوضع ، ممكنا بل وخلقت بين المهاجرين والسكّان الأصليين بعض الصّلات ، ولم يعد هؤلاء يتبرّمون أو يبدون الإنزعاج ، ولكلّ طائفة من طوائف المهاجرين ، « كبير » يفضّ مشاكلها ، يطلقون عليه عبارة « الكابو » * ويقع عادة اختياره انطلاقا من السن ، وسنوات الأقدميّة وإجادته اللّغة ومعرفته الواسعة بالسلّط المحليّة ... وربما يلعب ارتباط الحياة التجاريّة بالخصوص لهذه القرية بمجىء المهاجرين ، دورا أساسيّاً في هذا التعايش ...

وتقسم الطوائف المهاجرة إلى قسمين أساسيين :

- « الماروكينو » *

- « والنرو » *

وتجمع عبارة الماروكينو كلّ المهاجرين من بلدان المغرب العربي ، وخاصة تونس

* « الكابو » كلمة إيطالية تعني القائد ...

والجزائر والمغرب ويعرفون عادة لدى أهل القرية ببشرااتهم المائلة إلى السّمرة الفاتحة ، والشّعر الذي يكسوه اللون الأسود ، متراوحا بين اللّونة والخشونة ، ولا يفرّق هؤلاء ، بطبيعة الحال ، بين أبناء الأقطار المغاربيّة ، ويجمعونهم تحت مظلة "الماروكينو" كما ذكرنا ... أمّا عبارة "نرو" فهي كناية عن السّود بمختلف مللهم ونحلهم ، ولا يفرّق أهل البلاد كذلك بين أسود من أصل نيجيري وآخر سينغالي أو تشادي ، ويعرف لديهم هؤلاء بسواد البشرة الفاحم ، وميل شعر الرأس إلى التّجعيد الواضح ... ويخسر أصحاب الضيعة الفلاحيّة . في معظم الحالات ، السّود من أصل إفريقي ، إذاعزموا على انتقاء العمّال خلال الفترة الصّباحيّة ... ويفسر الآخرون هذه الخطوة بعدم التجاء هؤلاء إلى النقاش على مستوى الأسعار وقبولهم للأجرة المنخفضة ، والعمل في ظروف قد تكون قاسية ، وغير مجزية في نهاية النّهار ... وعلى خلاف هؤلاء الأفارقة ، الذين لا يمثّلون الأغليبيّة في هذه القرية ، فإنّ المهاجرين من أصل مغاربي لا يرضون بمثل هذه الظروف ، ولا يقبلون إلّا على الأعمال التي يرونها مجزية ... ولئن يحجم أصحاب الضيعات على قبولهم في البداية ، فإنّ ذروة الموسم وحاجتهم لليد العاملة الموسميّة تجبرهم على قبولهم بعد بضعة أيّام ، وغالبا ما يطلبون السعر المناسب ، والذي كان مقدّرا آنذاك بـ 1000 ليرة إيطاليّة بالنسبة للصندوق الواحد . ويعمل المهاجرون في ظروف صعبة ، ويتسلّم أغلبهم الأجور في نهاية اليوم ، ويصل البعض إلى 120 ألف ليرة في اليوم ، جزءا لحوالي 14 ساعة من العمل ، ومعنى هؤلاء النفس بجمع الأموال التي تبعد عنهم الفقر والحاجة ، وهم يقضون كلّ هذه السّاعات في العمل المجهد ، لا يقطعونه إلّا لمُدّة لا تزيد عن السّاعة لتناول وجبة منتصف النّهار ... ويقال إنّ الرّقم القياسي يحتفظ به أحد الأفارقة السّود ، فقد تمكّن من جمع حوالي 140 صندوق من الطماطم في يوم واحد ، وحاول آخرون بعده تحطيم هذا الرّقم ، إلّا أنّهم عجزوا عن ذلك ...

* الماروكينو : كلمة إيطالية تعني المهاجرين من أصل مغاربي (تونس ، الجزائر ، المغرب)

* نرو : وهي عبارة إيطاليّة وتعني السّود من أصل إفريقي ...

المهاجرون الجدد والوسطاء :

ولئن كانت قائمة مهاجري السَّيْنَات والسَّبعينات تجمع ثلَّة من المغامرين ، مَن تركوا الوطن وراءهم وتجاوزوا بحر الشَّمال في محاولة لتغيير الأحوال ، فإنَّ مهاجري العقدين الأخيرين ، أصبحوا متنوَّعي المشارب ، تجدد بينهم المَعلَم والأستاذ والطالب ، والفاشل في الدراسة ، كلُّهم يحطون الرِّحال هناك بحثا عن قليل من المال ، فالقليل هناك ، يكون كافيا وزيادة في بلدان الأَحْواز... وتراهم يقبلون على جمع كلِّ الفضلات من تجهيزات منزليَّة وأدبаш ملبوسة ، وأحذية تشبه أحذية الجندرمة ، يلمعونها بقليل من الماء ، ويشحطونها بالخيال ، فتصبح بعد أيَّام قلائل رزما متنوَّعة ، ترافقهم طوال الرِّحلة... والحقيقة أنَّ تلك الأدباش نظيفة بما فيه الكفاية ، وربما لبسها أصحابها مرَّة أو مرتين على الأكثر ، فالملابس التي يلقى بها على قارعة الطريق ليست مرقَّعة ، والأحذية المجمعَّة في الأكياس ، لم تكن مشقوبة ، والتَّجهيزات المنزليَّة المستعملة لم يكن بها عطب واضح ، وهذا يكفي للاحتفاظ بها ...

وطوال الرِّحلة ، يحافظ أصحابها عليها ويسعون إلى مراكمتها يوما بعد يوم ، وقد تصلح أثناء الليل ، فتلعب دور المخدرات ولن الضجر منها غالبا ما يظهر جليًا على وجوه حاملها... إلا أنَّهم بمجرد أن يتذكروا أنَّها تكلف المبلغ الفلاني من المال ، حتَّى يتمسَّكوا بها ولن تفلت من أيديهم وظهورهم إلا وهي أمانة في بطحاء الميناء ...

وإذا كانت العمالة الإيطاليَّة ، أصيلة البلاد لا تقضي في العمل إلا ستَّ ساعات فحسب ، من السَّاعة السَّادسة صباحا إلى منتصف النُّهار ، فإنَّها حاذقة ومختصَّة في مجال جمع الطماطم ، تظهر إتقانها عجيبا وتخلف وراء ظهورها صناديق طماطم قد يعجز بعض المهاجرين عن حصدها طوال يوم كامل ... ويتقاضى كلُّ واحد منهم الأجر الأدنى الفلاحي المضمون ، وهو ما يناهز 68000 ليرة إيطاليَّة ، وهذا المبلغ كاف وزيادة لضمان عيش رغد لكلِّ من يعمل في إيطاليا ، ناهيك وأنَّ ثمن الدَّجاجة المصليَّة في ذلك الصيف ، لا يتجاوز 5 آلاف ليرة ، والكيلوغرام من اللُّحم الجيِّد يقدَّر ثمنه بـ 13 ألف ليرة ... ولعلَّ هذه

الإمكانات الهائلة التي تتوفر لدى الإيطاليين في ضمان معيشتهم ، هي التي تحدث الفارق وتجعله في صالحهم ، وذلك بالمقارنة مع دول العالم الثالث ، وهذا ما يعبر عنه في لغة الاقتصاد بـ " المقدرة الشرائية " ، فالأجر الأدنى المضمون في البلدان المغاربية آنذاك ، أي خلال نفس الفترة ، كان مقدراً بـ 4 دنانير تونسسية ، أو ما يعادلها ، وهي قادرة على ابتياع دجاجتين مصليتين على أقصى تقدير ، في حين أن الإيطالي ، بذاك الأجر الأدنى الفلاحي المضمون ، كان قادراً على شراء حوالي 14 دجاجة مصلية ... وهذا ما يحدث الفارق ، وهذا يجعل الهجرة تنكشف نحو بلدان الشمال ، وهو عامل من بين عوامل أخرى عديدة ... وإذا رجعنا إلى الحقل ، نجد هناك المرأة الإيطالية الفلاحة ، ودع عنك حينئذ الصورة التي تحملها عن المرأة المتبرجة ، والتي لا تحلم بغير الموضة والعطور والجواهر ، واطرح عنك تلك الصورة ، كما يطرح الثوب دون رجعة ، لأنك ستفاجأ بنوع آخر من النساء ، تفوح من أدياشهن روائح الطماطم المتعفنة التي فقدت نكهتها تحت أشعة الشمس الضيئة الساطعة ، وينسين طوال أيام متواصلة أن يضعن على شفاههن أحمر الشفاه ، ويضطرنك لنسيان فكرة التبرج الذي حملنا عنهن قبل النزول ببطح الميناء ... ولكن إذا صادقت إحداهن في نهاية الأسبوع ، فالأكيد أنك لن تعرفها على وجه الدقة .

وهلم بنا نطوف الحقول التي يعمل بها المهاجرون ... كيف تبنى العلاقات فيها أولاً : بين المهاجرين أنفسهم وهو الأهم حسب رأيي ، وثانياً بين المهاجرين ومالكي الضيعات الفلاحية ، وهي علاقات لا تنقل أهمية ؟ غالباً ما يكون المهاجر الجديد مرافقاً لمهاجر سبقه لإكتشاف العالم الآخر ، وترجأه خلال فترة زيارة الأهل لاصطحابه ، فتحصل الرقعة ... أو قد يتفق أكثر من صديق من أعمار متقاربة على الهجرة ، ويكون اكتشافهم للعالم الآخر مشتركاً ... ويبحث المهاجر الجديد عن طريقة ما لدخول الدورة الاقتصادية ، وغالباً ما يتلقفه الوسطاء من نفس البلد ، الذين يعرضون عليه تسهيل الأمور وتبسيطها وضمان العمل في الضيعات الفلاحية ، ونقله من ضيعة إلى أخرى ، وضمان الإقامة إذا تطلب الأمر ذلك ، شريطة أن يدفع أتاوة مقابل كل تلك الخدمات ، كانت في ذلك الصيف في حدود خمسة آلاف ليرة في اليوم . يدفعها عند نهاية العمل ... وغالباً ما يتفق

ذاك الوسيط مع صاحب الضيعة على كافة التفاصيل مسبقاً ، فهو الذي يلبي طلباته من العمالة ، وهو الذي يسهر على تنظيم العلاقات بين المهاجرين ، ويفضّ الخلافات التي قد تنجم ، يفضّنها في الغالب بالحسنى ، إلا أنّه قد يلجأ إلى العضلات القويّة ... ولهذا يكون الوسيط في معظم الحالات قويّ البنية ، صلب الشكّيمة ، لا مكان للعواطف في قلبه ، عارفاً بلغة أصحاب الضيعات الفلاحية ونفسياتهم ، وهؤلاء غالباً ما يخيرون هذه الطريقة ، اعتباراً لكون معظم المهاجرين لا يحسنون لغة البلد ، وتفادياً لكلّ المشاكل التي قد تطرأ ... إلا أنّهم يبقون على سلطة المراقبة ، فهم الذين يتفقّدون الصناديق المليئة بالطماطم ، ويفرغون منها المنتج المتعفنّ وينصحون العمّال بعدم الغش في أكثر من مناسبة . ويشترى الوسيط منذ حلوله بالبلاد سيارة قديمة ، وسيلة لتنقله الخاص ، ولجلب العمّال من ضيعة إلى أخرى ... وغالباً ما تطلّ سطوة هؤلاء الوسطاء ضيعات فلاحية متعدّدة ، يغمون منها الكثير من الأموال ، وقد يصل عدد العمّال الذين يتصرّف فيهم الوسيط ، المائة أو أكثر ، وهو ما يعني أنّه يكتز قرابة الخمسمائة ألف ليرة في اليوم ... وقد يحاول بعض المهاجرين فض الطوق عن أنفسهم بعد مرور بعض الأسابيع ، إلا أنّهم يجدون أنفسهم مكبلين ، ذلك أنّ الوسطاء يعتمدون إلى اتفاق فيلعلهم يفتنهم بقطعني بعدم المساس بمصالح بعضهم البعض ، وإذا صادف أن حاول أحدهم "العقوق" ، فإنّه يلقي تأديباً صارماً ، فلا يفكّه شيء من أنياب الوسيط وعضلاته التي لا ترحم ... وللوسطاء طرق ما في تركيز سلطتهم والذود عنها ، ويطبقون كلّ الفلسفات التي نادى بها الفلاسفة والحكماء دون أن يعرفوا عنها شيئاً ، مثل عبارة " الإنسان ذنب لأخيه الإنسان " لهويز الأنقليزي ، و "الغاية تبرّر الوسيلة " لمكيافلي ، وغيرهما من المفكرين والفلاسفة ... ولإظهار سلطتهم على المجموعة ، ولإعطاء درس "للمارقين " يتخيرون أضعف المهاجرين ، يستفزّونه وينتظرون أوّل ردود فعله الانفعالية ، وعندها يكون العقاب شديداً ، يظهرون فيه لبقية المجموعة أنّ مفهوم الرحمة والعطف لا وجود له في قواميسهم ...

ولهؤلاء الوسطاء معاملات متنوّعة مع مالكي الضيعات ، ويتركونهم في دور المتفرّج إذا وجدوا نزاعاً بين المهاجرين ويعطون الوسطاء سلطة كاملة لفضّها

بالطريقة التي يرونها متماشية مع المشكلة ، ذلك أنهم على الدوام ، ينظرون إلى المهاجرين على أساس أنهم لا يخضعون ردود أفعالهم إلى ثواب ، وهي انفعالية في الغالب ...

وإذا كان الوسطاء يبدلون مجهودات ، وإن كانت متواضعة ، فإن البعض الآخر يقضي أيامه مترصدا للمهاجرين ينتظر أول فرصة للإنقضاض على جوازات سفرهم ، وعلى أموالهم... ويتركون متسعا من الوقت لذلك، قد يكون في حدود الشهر ، حتى يضمنوا أكبر مبلغ ممكن من الأموال ... ويتعاون هؤلاء مع بعض الإيطاليين في تنظيمات يسمونها « رابيننا »* ، يستعملون فيها الأسلحة النارية والدراجات الفخمة ، وهي تحل في الهزيع الأخير من الليل ، مرفوقة بالرعب والعنف ، ويكون المهاجرون ضحيّتها الأولى... لقد استخدم الغرب شرذمة من أبناء البلد تحضيرا لاستعمارها، خلال حقبة تاريخية ما، وها أن شرذمة ثانية ، تواصل على نفس النهج ، فتتخذ « الرابيننا » طريقة لإذلال أبناء البلد والسطو على ممتلكاتهم ...

يهجو نفسه :

وتقابلك أصناف عديدة من البشر، معظمها قد انقلب من النقيض إلى النقيض ، ويطغى جانب الأثانية على أغلب الجوانب ، وينسى البعض في غمرة جمع المال ، العديد من المبادئ والمثل ... ويصادفك من حين إلى آخر ظرفاء تستغرب وجودهم في البداية ، ولكنك سرعان ما تستأنس لهم وتستطيع العيش إلى جانبهم ... و« رمضان » منهم ... حين تراه في أثوابه الرثة والطاوية الإفرنجية التي يحملها في كل الفصول ، تتأكد أنه لا ينتمي إلى هذا الزمن وأنه فار من أحقاب ضارية في القدم ، ولكن بساطته وظرفه وربما غبا ، يجعل الجميع يطلبون الجلوس إليه والاستمتاع بحديثه ... وأذكر أنه أعلمنا ذات مرة بتعرض أحد المهاجرين لضرب مبرح من قبل «ماركو» في الساعات الأخيرة من الليل ، وسألنا إن كنا حضرنا هذه العملية ، فأجبنه بالنفي والحقيقة أننا نلاحظ الأمر خلال الأيام القليلة الماضية، وفضولا متسا سألناه إن كان يعرف المهاجر الذي تعرض للضرب يتبع

* رابيننا : RAPPINA- وهي كلمة إيطالية تعني المجموعة التي تسطو على متاع الغير وأملاكه

فنون تشكيلية

أركيولوجيا اللون الغائب

قراءة في تجربة

الفنّانة التشكيلية

حسناء الدريدي



بقلم : لطفي عمي

« التجريديون مثلهم مثل الطبيعيين .. إذ هم يعجبون العالم خارج عن ذاتهم .. والفرق بينهما هو أنّ التجريديين يفتشون أعينهم عن العالم المنظور .. بيد أنّ الفن كان على الدوام معادلة بين الإنسان والعالم معا . وهذه الوحدة المكتشفة تعتبر بالنسبة لي وفي ذات الحين إدانة التجريد الصّرف والتوجّه الطبيعي الخالص » .
Bazaine بازان

الذاكرة : إذ تتحقّق خلف تفاصيل مراسنا اليومي .. تبقى دوما تلك السّلطة المحكّمة في منتوجنا الإبداعي وبذلك تتجلّى الذكريات علامات متسترة بين لطخات الألوان ولمسات الفرشاة المزدحمة بقلق الحيارات .

أن تبدع بنية أو نمطا تشكيليا هو أن تمتطي ذريعة ما .. لتكون بذلك قد حدّدت باب الدخول إلى عالمك الخاص .. ومن ثمّة تنفلت نحو آفاق للتجديد والمجازة .

حسنا الدريدي فتانة تشكيلية تبحث في ملفات أرشيفها المزدحم باستثناءات
الطفولة .. المثبتة بروح المعاصرة وحميمية المشاركة والاكتشاف :لتنقل بأمانة
إحساساتها : تلك المشاهد الومضة .. المظلة من أعماق المخيلة لتكشف لنا عن
أبعاد كتابتها للتراث والمدينة العتيقة .

إرجاع المرايا :

« الموضوع : هو على الدوام أنت ، ولكن الموضوع الذي تصوّره هو شخص يسمح
لك بالعيش : أن تشخّص شيئا ما فذلك يعني أنك تحيا : اعتقد أننا نكون أكثر
سعادة بالحياة في خضوعنا للعالم » . هليون Hélion

تبقى الحياة المنظورة شريطا لا متناهي يزودنا بطاقة مستديمة للمشاركة في
الحراك الإبداعي عبر معاودة تجربة المحاكاة والخلق . الأشكال المركبة في بساطة
تراثنا المائل تحت عين الشمس : تبوح بالغموض والعتاقة ، وهي في
خصوصيتها تضيئ طبقا روحانيا على المشاهد .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في هذا الفضاء العتيق النابض تحرك حسناء فرشاتها على القماشة وهي لا
تدري أنها ترسم ذاتها عبر تثبيت ذلك التفاعل الحي بينها وبين العالم الخارجي :
هي بذلك ترسم الحس المشترك والذاكرة الجماعية لتصبغها برائحة الذكريات .

وفي هذا السياق : لا تحاول أن تصوّر مشاهدة العين بل تجرّب رسم انطباعها
حول المنظور : إنها تجسّد بصدقها الفطري إحساسها بذاتها من خلال الآخر .. من
خلال الغائب الحاضر .. ومع خطواتها الأولى تحاول قبل كلّ شيء ، أن تثبت للأبد
الأشياء التي تشكّلها أكثر وتدهش أكثر : بعيدا عن العقلنة والتكلف . هي تسعى
في غير جهد لتنتشي برائحة العتاقة والقدم ... إنها تبحث عن تلك الألوان
الترابية القادمة من زمن بعيد : فالقديم يوكد لديها الإحساس بالقداسة والسكينة .
وهي إذ تصوّر المعالم الحضارية : لم تسقط في تلك النظرة الإستشرافية الغرائبية ،

بل كانت تلبي نداءاتها الباطنية التي تدعوها لاكتشاف الذات عبر تخليد تلك الإحساسات الحميمة وتلك الإنبهارات بما هو أصيل ... إنها تحاول أن تفتح منافذ للسفر نحو أزمنة لن تعود .. نحو تاريخ ترك بصماته للأبد .

كما أنها تبحث في غير كلل عن موضوعات متباينة .. لتمسك بالخيوط الذي يصلها بالضوء المنعكس من الأشكال : بأشباح الألوان بضجر القماش من لهو الفرشة واللّهث خلف خيار مستحيل .

من المنظور إلى المحسوس :

« لكي نقارب الروحي في الفن علينا أن نبتعد أكثر ما يمكن عن الواقع ، لأنّ الواقع هو نقبض الروحي وبالتالي نحن بحاجة إلى توظيف الأشكال الأولية البسيطة ، وبما أنّ تلك الأشكال تجريدية فأننا سنجد أنفسنا حتما أمام فنّ تجريدي » .

بيات موندريان Piet Mondrian

توظف حسناء عدّة تقنيات .. وهي بذلك تحاول أن تنفذ إلى تشكيلات لونية ثرية بانزياحاتها ومضامين تعبيرية تفوق إمكانات التقنية الواحدة . ولعلنا نكون مغالين حين نقول بأنّ كلّ هذه المحاليل اللونية باختلاف تراكيبها استعملتها حسناء للبحث عن الشيء ذاته : فهي تنشد الأحواز القديمة والألوان العتيقة ولامتناهي يختفي خلف حجب مادية .. إنها تتاجي عالما أزلي كامنا في أعماق الروح الإنساني .

في هذا الطقس .. تتحسّس شينا فشيننا حالات تعبدية .. شعائرية فيها تترقى الروح وتتجرّد المحسوسات لنجد أنفسنا في الأخير أمام حالات وأشكال بسيطة ومتجانسة .

ومن خلال هذا التمشّي يمكننا أن نستشعر مدى تطوّر هذه التجربة الناشئة ..

إنَّها في غير إكراه تنمو باطراد من المركَّب إلى البسيط .. من المنظور إلى المحسوس.. من المادِّي إلى الرُّوحي .. من التَّشخيصي الصرف إلى الإبتطاعي .

تقنيات الإمساك بالشَّعلة :

« إنَّ كثرة الألوان تفقد قوَّة اللَّون وبإمكان اللَّون تحقيق القوَّة التَّعبيريَّة فقط إذا كان تدرُّجُه منظِّماً ومتناسقاً وتتماثل شدَّته مع الإحساس الموجود داخل الفنَّان » .
هنري ماتيس Henry Matisse

تستعمل حسناء تدرُّجات الكستنائي وخراتطها مع الأصفر بشتَّى شحذاته ..
إنَّها تنشُد حالات لونيَّة هادئة .. كتيمة .. ساكنة ودافئة ، وهي بهذه الخيارات تحاول أن تصل إلى تشكيلات لونيَّة متدرِّجة ومتناسقة : وهي تعتمد على اللَّون كوحدة أساسية في أعمالها للوصول إلى بصمات عتيقة ونقيَّة . الشَّكل بالنَّسبة إليها ليس سوى ذريعة للدَّخول إلى بحوثات لونيَّة تعكس إحساساتها .. وهي في خياراتها لا تهتمُّ بالموضوع في حدِّ ذاته ولكنها تعسِّد على إبراز طريقتها الخاصة في تناول الموضوع وذلك يعني أنَّها تحاول أن تجعل من قراءتها للمنظور موضوعاً مستقلاً وبالتالي يمكنها أن تتعدَّى فعل الشَّكل إلى فعل التَّشكيل ،
« الشَّكل نهاية وموت أمَّا التَّشكيل فهو حياة »
موندريون Mondrian

ومن هنا يسعني أن أصنِّف أعمال حسناء الدريدي ضمن التوجُّه الإبتطاعي ،
L'impressionnisme وهو بمثابة خطوة نحو الإنعتاق من الرُّؤية الكلاسيكية للعالم وتجلياته .

يعتبر الضوء العنصر المحوري في أعمال حسناء وهي تصل إليه عبر تدرُّج في القيم اللَّونيَّة وعبر التَّضاد : « اللَّون هو بالتَّأكيد معاناة الضوء » .

عوتة Goethe



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>





يمكننا أن نلاحظ بوضوح الطريقة النَّقِيَّة في رسم الأزقة حيث نصل في الأخير إلى مصدر ضوء متوهج .. وربما يكون البحث عن تلك الإضاءة المبهرة .. هدف في حد ذاته .. يعني السعي إلى المسك بالشعلة الأزليَّة .. بالمطلق الذي نفتقده عبر تعاملنا مع المنظور المادّي .

أخيرا : يمكنني أن أقول أن حسناء .. وفي هذه السنّ المبكرة .. تقوم بخطوات ثابتة ومدرّسة: عليها أن تواصل على هذا النَّسق مع الكثير من العمل والمثابرة على حدّقول ماتيس : « لم أتوقّف عن الرّسم لمدة خمسين سنة متوالية ، كانت أوقات عملي تبدأ في التاسعة صباحا وتنتهي عند منتصف اللّيل يتخلّلها وقت قصير لتناول الطّعام » .
هنري ماتيس Henry Matisse



ARCHIVE

بعض التواريخ :

حسناء الدريدي : 1973 <http://Archivebeta.com>

95 . 96 : شاركت في الصّالون السّادس للشبّان التّشكيليين (سيدي بوسعيد) .

96 : شاركت في صالون المرأة للفن التّشكيلي (بدار الثقافة أحمد أبو ليमान (باب سوقة) .

97 : شاركت في مسابقة بلديّة تونس .

97 : أوّل عرض شخصي (بدار المسرح والسينما بن رشيق) .

98 : شاركت في الصالون السّابع للشبّان التّشكيليين .

98 : عرض شخصي (بالمركز الثقافي الرّوسي) .

يسعى المعلم في الحياة دليلاً
تلك الرسالة لا يهب لحملها
لو أن وجه الشمس أصبح ناطقاً
ولد مدمت مُهَجُّ الرياح لخطوه
ولظللت من السماء غمامة
تأتيه أسراب الطيور تشوقاً
حتى الجبال إذا رآته تصاغرت
شرف المعلم أن يكون صدى له
جلت مهمته وعزَّ مقامه
هذا الذي وقف الجميع ببابه
عرفوا الكرامة من خلال إيمانه
ويخطُّ درب الأنبياء سبيلاً
إلا المعلم قائداً مسؤولاً
حيَّاهُ حياً ، بكرة وأصيلاً
وجنت له موج النسيم عليلاً
وبنت له فوق الزهور مقيلاً
تتعلم الإنشاد والنرتيلاً
وسعت له بأريجها إكليلاً
نغم الوجود وكلَّ قيل قبيلاً
عشق المبادئ فارتضته خليلاً
واستوقدوا من مقلتيه فتبيلاً
إن المعلم لا يكون ذليلاً

ويقول لي والصدر ينقث حسرة
أطربتني وخططتني أنشودة
أجنان خلد ما بنيت مزوقاً
لله درك من قزول مفصح
أغريتني بالصبر لما ذقته
قد قالها شوقي صيحة مخلص
فهل استعدت من المشاعر بعضها
سأطوف يومي حول مدحك عابداً
وعيب المقاصد أن تظل كلاماً
وجعلتني فوق الجميع إماماً
أتريد أن أستوطن الأوهاماً
يُهدي الضباب ويصنع الأحلاماً
سوَّغت لي الأتعاب والآلاماً
لكن رأيت السامعين نياماً
وأناك داعي الحالمين وقاماً
وأعود ليلي للعيال حطاماً

إنِّي المسافر في الكلام بمهجتي
وأنا الذي احتضن الطفولة صدره
وطني اللسان إذا أردت مقاماً
وسقى الزهور محبةً وسلاماً

أسقي البراعم من دمي دفع الحياة
يكفي رجوتك ما تصوغ من الغنا
جلّ النساء هوينني وهجرنني
يعشّقن مالك زينة وتدلّلا
كم داسني الحرفان في مشحونة
هذا الطباشير/العجاج بناظري
وادخن التبغ/ السمووم لعليّ
إن صحت بالصبيان يا شرالوزي
جاء الجواب قلملا وتهكّما
وإذا المساعد والمراقب شرّقا
فأجول بين مذكّرات براجمي
ويهبّ لي ضيفي الكريم محمّلقا
يهوي عليّ بكيل الهمم عاتقا
ياربّ ضيف يستحل معاليبي
لولا الحياة وبعض عزّ في دمي

إنّ المعلم في الجهاد معلّم
كيف استباح الطعن في أبّامه
إنّ الرّبيع مكّم يا سيّدي
قم للطفولة تسترد صفاءها
قم فالوجود بغير وقعك مقفر
أنت الذي يروي النفوس تفاؤلا
تهوى البلاد جبالها ووهادها
يا قبلة الأطفال يا أحلامهم
إنّ المعلم ما تكلم مبدعا

ومقدّم في النّاهين مبينا
ورأى الوجود شقاوة وشجونا
ويفيض لحنافاترا وحزينا
وخيالها الورد والنسرينا
والصّمت في أرجانه يشقينا
ويبثّ روحا للسّماحة فينا
لم تحن يوما للظروف جبيننا
يا فاتح الأفاق يا راعينا
قال الزّمان وراء آمينا

لمن أدون سيرة النّجمات ؟!

شعر : محمد عادل الهمامي

لو كان لي أفق

لنمت على جناح فراشة

يُمَت أبعد نجمة .. صافحتها

وتركت ظلي في أصابعها .. وكنت

غمامة ينداح في دمها الصّباح

ولا يعود ..

لو كان لي قمر شريد ..

لقلت للكلمات كوني ..

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

دهشة

أو

رعشة تخضر في دمها الوعود ..

لو كان تحت أصابع القدمين نهر

يستحم بفتنة الرؤيا

لقلت لغيمة أطعمتها تعبي

تعالى ..

كي نباغتني الرّعود ..

وجع على وجع ..

أكاد أحس خطو الرّيح في الصّوت الجريح ..

أكاد أجش بالقصيدة

تكتب الزّمن المدثر بالصّبايات المعتقة العتيقة

ترسم الرؤيا

ملاذا

أو

رذاذا

تستفيق على مدائح الزنايق والورود ..

وجع على وجع

وتشربني الدقائق والمواسم والعقود ..

وجع على وجع

يقاسمني حليب الروح ..

حاء الحب باء ..

نبضي المنفي في كهف

ثوئته الصديد ..



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.it>

وجع على وجع ..

يعالج في دھول .. سيرة الماضي

يسائل جثة الأيام

عن طلل الرؤى ..

عن أصفياء تفرّدوا فتوحّدوا ..

يا درب مكثر يا صديق

الليل يعطر المعاني

ماذا ترى فعلت بنا

وبك القصائد والأغاني ؟

سرنا نُذيب الليل في ..

أقداحنا نحشو الأمانى

وعلى رصيفك صافحتنا

في حنّو نجمتان ..
 إذن تناءى في حفيف الأمس
 إبراهيم إبراهيم إبراهيم *
 فانطفأت عسايلج الضياء ..
 وأوصد المجنون أبوابا سيطرقها الجليلد ..
 إذن تراءى
 في سماء الشدو طير عاشق
 أم ناصر * اندلقت خطاه
 على رصيف الجمر
 فاشتعل النشيد !؟



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هذي التفاصيل البسيطة
 من يؤجج صمتها
 أم من يؤجل موتها
 أم من يشيد ..
 على دقائقتها قصورا من حنين
 لا تزول به الفصول ولا يبيد !؟
 كأنّ أسماني التي زوجتها ألقي أضام
 فاستوى قلقي ..
 على عرش الثواني
 أيها القلق المقدس
 ليت لي صمت الدمي ..
 أو ليت أني ..
 مثل ضوء الفجر أعرف ما أريد !..

* * الصديقان : إبراهيم السمراني ومحمد الناصر البوعيسي .

لمن أدون سيرة الخطوات
والدرب الطويل
أعارني حمى الذهول ..
لمن أدون سيرة النجمات
والليل المطرّز بالمواويل الشجيرة
لفقه الماضي البعيد ؟
أرى بقايا الأمس تهجرني
وتزحف نحو مرفئها القصي
ولا تعود

أرى الحدود تصير أقرب من حفيف النُبض
تلبستي وتُجهش باللظى
إنّي الحدود

فكيف تغسلني الرّوى
لتفكّ وحدتها الحدود ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>
هناك أعرف أيّ سندسة سيدمتني سداها ..

أيّ امرأة سيدفتني ذراعها ..
وأيّ جزيرة ..

سيكون شاطئها سريرا ..
يستريح على وسائده القصيد ..

أوت 1997

المدينة

شعر : الصبحي العلوي

مرضي من شقائق الطرق البعيدة

وعيون النار في جسدي

ترجيع وتر

وسعادة السقم افتضاض

أرمله جريده

أو في المقهى الصحفيه

نكهتي ظلت ذبيحة



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Saknet.com>

مرض الشوارع في هبوب الكستناء

على مقاسي

دمعتين فمحجرين فحاجبين

على تخوم الأريضة مري

معذرة يا سيّدة

يا آنسة

يا

معذرة يا ماطرة

مري ..أو ...

قفي تحت مطاريتي

سكون مصراعين

لنافذة الشتاء

أبها القطر الموقع

صه... ذا أنين سكارى الليل
يهدهد سبات شارعنا المقفع
معذرة...

يا فوانيس المدينة
دموع أضواءك
أعشتها السنون الغابرات
وارتيادي آخر قاعات السينما
في فصولك

وبعضا من كتابنا
عادت فترات

إلى بائع الفول

يا كؤوسا خرفت

في معاصمها الأغنيات

يا آخر الليل

مرض المدينة في اتيجاسي

تحت أوراق المطر

وخليلي شدّه الوجع

ورونق الخطو الطليق

في اقتفاء القمر

وقع أقدامها

إنّها هي المدينة

أسوارها انحناات مجردة

والباب قنطرة قديمة

موتك في البالي الصفر

ترجمة لجميع الأمنيات

وأغنية حزينة



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Saklil.it.com>

« هذا ما دوّنه شاعر »

شعر :صفاء ذياب
العراق

1 - ربّما ...

تنضجُ المرأةُ يوما صورتني

فأصير زهره

أو ...

أصيح السّمعُ لمعزوفة ما

فأطير

2 - المسامات التي تتخلّل هامشي

تنزّ عن أفعي <http://Archivebeta.Sakhril.com>

والمروّحات

التي يدلكني يومي بها

تحيض

وإذا توقفت

أكون أنا !!!

3 - أنا سفينة شطرت صوب بحرين

بعضي ، يسأل بعضي :

- من يكون ؟

شاخص ..

كأعواد وقت

وقف ..

وظلّي يدور

4 - أيّهذا الذي يقلقني

وأنا مبّلل بالذنوب

هانج في لجّة الأمطار

لكن ..

أغنّي لو أغور

5 - هذي شعابي



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakuni.com>

منذنة

دخلت في بطن حوت

6 - أسجن بين حروف النّصب

أمكث

مائدة !!!

فأفيض

7 - رُتقت قُبعتي

ولهذا ...

صودر ناقوس الكلمات

8 - آخر ما يولد فيّ

تمتمة

تسحبني لبقايا ذاكرة نخره
أسدلت ثيابي فوق البحر
فرايت

طيورا تخرج من صومعتي
لتموت !!!

9 - هذي معجزة

أن أمشي

فأرى ظلي

لا .. تأخذُ كأساً فارغة

لتناطح أبواق الريح

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

10 - ماذا ...

يخرج من تلك الصخرة ؟

ماذا ...

يجرح ضرس النملة ؟

ماذا ...

يكتب شاعر

وعلام تموت فراشه ؟

ضجيج الصمت

شعر : أميرة الرويتي

ثدي ...

منه تتهاطلُ الأموة ...

في زحمة القحط ،

في ثخمة ..

الموت ..

في تصدع الذاكرة .

فأبسطُ .

في تقوقع الحياة

كفوف الرّحيل .

أغتالني ..

وأصمتُ .



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

تجتزّ الكونَ ...

أفكار العدم

ترتعث في الطوفان

ريشة عصفور

مفادر ،

إلى حيث لا شواطئ .

أحزمتُ أحزاني ...

أغلقُ .

يشبّ حريقُ ...

في تلايبب الإيمان

تنتحر ...

كلّ القمم ...

ويعمّ الانحدار ...

أشفيقُ .

أريد أن أكون

شعر : روضة القاسمي

صبيّة شقيّة أريد أن أكون
وصرخة وليد يريد أن يكون
وموجة في ذروة الجنون

وريح رمل عاتية

وثورة شجيّة

وهزة أرضيّة

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakina.com>

وربة جنون أريد أن أكون

أريد أن يكون حبي لك لا يعرف قانون

وأن أكون امرأة سحرية تهدم السجون

تشرّد العيون

تولّد الهدوء والجنون

ووردة وحشيّة تلافح الغصون

ولعنة شنيعة تهابها السنون

وصرخ بندقيّة تريد أن تكون ... فتكون

* * *

أريد أن أكون
أريد أن يكون درنا قصيدة
وقصتي بحذوك مغزوقة قريبة
ونار حرب مهلكة مبيدة
وسورة قيمة من ربنا مفيدة
وصهوة جواد سريكة عنيدة
* * *

أريد أن يكون بعدنا اقترابا
وصحونا وحبنا ضربا من العذابا
وأن يمرّ عشقنا عبر صخور صلبة ... لا تعرف الذوابا ...
وصرخة عنيدة في عالم العتابا ...
ومهرة وحشية بريّة لا تخشى الرتابا
أمنية عاتية أريد أن أصير
ولعنة تبدّد تاريخنا المرير

.....
وعالم ليس له سواحل وحدّ من قصدير
فعالمي ممدّد ممطّط كبير .



رَجَعُ صَوْتِ الصَّمْتِ

بقلم : نهلة علاّم العيّاري

غدا اليوم الذي يذكر بميلادي . قيل إنّه يوم ولدت كان الجو غائما
تدثرت فيه الشمس وامّحت جبهة الربيع خلف موقد شتوي عتيق .
قيل إنّه يوم ولدت كانت الأمطار تنسج بخيوطها الفضية حكاية
الخصب وتغنّي للأرض موأل البدء يوم غرقت الأرض في مياهها
المتدفقة وغمر الطوفان وجهها الجميل ومحا ما به من غضون ليكتب
قصة جديدة للبعث .

أقبع وحدي على فراش في ليلة شتوية تارت فيها شتّى العواصف
وهبت فيها من هجعتها كلّ الأرواح الشريرة . اعتصر ذاكرتي وأقلب
في ثناياها على أثر على بقايا ذكرى أومّ بها ما طمس من معالم
حياتي الماضية <http://Archivebeta.Sakhr.it>

خمس وعشرون عاما مضت عليّ وأنا أحلم وأرجى الحلم وأضحك
وأخفق الضحك وأشرق بالدمع فأكفكفه وأدخره لما سيأتي من أبنائي .
خمس وعشرون عاما قضيتها أبحث عن عاشق قتله عشقه وعن
مسافر نفد زاده فتغذّي من جرحه وعن طفل يمكس قنبلة بحسبها دمية
وعن راهب تكسرت عنده كلّ الكتب المقدسة فتهاوى من قمة الجبل
قربانا للامتناهي .

خمس وعشرون عاما نسيت فيها كلّ الروايات والحكايات
ونهلت فيها عن دنياي وتعلّمت أن أكتُم الأسرار وتدرّيت فيها على
الإنشاء بالألم ...

ماذا أريد أن أقول ؟ أستطيع ؟! هبهات .
لماذا تموت على شفتي الحكاية قبل أن تولد ؟ لماذا تعودت الكلمات

سجن حنجرتي ؟ هل بدأت في التآكل والإنقراض ؟ تعبت بي رياح
شرقية وغربية وأخرى لا وجهة لها ولا منشأ ، تعبت من ملاحقة
الأوهام والخيالات . حتى الأحلام لم أعد أعرفها . أهي أحلام أم
حسرات ، مات في قلبي النبض كما تموت الحبة في جوف الأرض .
ومع ذلك مازلت أحلم . أحلم بحب يورق ويفرغ في الخلاء . أحلم
بوجه أُمِّي وعينان تحنوان عليّ تخفي ما قد أطلّ منهما من دمع
جسور .

تذرف عيون الناس دموعاً وتتجمّد في عيني الدموع وتغدو زجاجاً
شفافاً يغلف نظراتي . حزني يا أُمِّي صامت مقدّس لا حدود له .
حزني يا أيتها القربة البعيدة لا قرار له . إنّه أيتها الرقيقة الرؤوم
وعد وصلاة . همس ودعاء .

الصمت ولاشيء سوى الصمت هو رفيقي وصديقي ، هو ملاذي وهو
ملجئي في وحدتي . هو عبادتي حينما تنهافت كلّ الأديان .
تحدّث نفسي فتقول لها : « أفلا يضيقك السفر ؟ أما أنّ لك أن
تهجعي وأن ترسي عليّ شاطئ التجاة قاريك » .
فتجيبها نفسي : « سفري هو مرساي ، وغرقي هو نجاتي وقاري
ومجدافي هما زادي أهِيم وأنا أحمل بداخلي أغنيات قديمة تناساها
القوم وبادت وأطوف أروي حكايات صمّ القوم عنها أذانهم .

يكبر حلمي ويتعاطم فيبلغ رؤوس الجبال ويلتحف بغلالات من
الغمام الشفاف ويغوص في عمق البمّ ويستمتع السحر إلى أناشيد
وحكاياتي ويشهد الفجر بكائي ونحيبي ومدّ الأصيل نحوي بدا
خجلي يسبح ما على وجهي من شحوب .

الربيع حبّي الأوّل وحنيني وشبابي والحريف حزني وانكساري
وحكمتي وجنوني والشتاء طهري وذنوبي والصيف أمني وسكوني
وضحكي وشجونني . هذه كلّها تعزف لي لحناً سمعت صداه يتردّد في
أعماق ذاتي . أو لعله تردّد في كهوف الذاكرة .

رحلة في مرآة

قصة قصيرة

بقلم : حسيب الكسراوي

حين أقلعت الطائرة ، كانت تجلس أمامه تواجهه ولم يكن من أحد حذوها أو حذوه ، فمن مزايا الدرجة الأولى في الطائرة الراحة وقلة الأعين . كانت تعرف أنها جميلة بل رائعة الجمال . وهي إن شاءت أو لم تشأ تفتن العيون وتسحرها فتتشد إليها بتلك الحبال الرقيقة التي لا تقطع « فالعين باب النفس الشارع » وقيدها أو سبيل إنطلاقها .

عدكت جلستها وهي تصفّ خصلات شعر كانت منثالة على جبينها .. لا بدّ أنّه ينظر إليها من وراء نظارته السوداء ... أنفه الرجال وكبرياؤهم ألواهم .. نظرت في مجلة علمية ، وحاولت أن أقرأ مقالا عن تحولات ردود فعل الجسم على الأرض وفي الماء وفي الجو .. وفي أعلى الصفحة الأولى من المقال صورة لبعض المتحلاقات وهنّ يقمن بحركات بهلوانية في الجو ... يا له من منظر رائع : زرقاء السماء تشبه زرقاء عينيها ، ورشاقة المتحلاقات على الهواء ، كما تبدو من الصورة تشبه إلى حدّ رشاقة جسمها . وشعرت بيدها تجسّ خصرها وهي تسوّي فستانها . وارتبكت فعادت لتمسك بالمجلة العلمية من جديد.. لا بدّ أنّه كان يراقب حركتها .. ولا بدّ أنّه لاحظ ضغط يدها على خصرها وكشف خدعة تسوية الفستان. فالرجال يوهمون بأنهم لا يهتمون بالشكليات وسفاسف الأمور كما يقولون .

نظرت من النافذة فإذا بها على جبل من البخار الكثيف لا يتلاشى إلا ليعود أشدّ كشافا وإبهاما بالصلاية كذا يكون الرخو صلبا وكذا تكون الحدة رقة تميز وتصنيف أو تجاوزا .

شعرت برجفة سرت فيها لم تدر لها من سبب سوى هذه النظرات المرشوقة فيها ، تسلط عليها فإذا هي كمجهر أو كشعاع يخترق الحواجز ويتجاوز الحدود أوهي كنظرات أفعى تلقي بسحرها على فريستها فتشلّ حركتها .. كذلك تلك النظرات

الثاقبة تلسعها فتخطف . ثمّ ها هي تعود لتعتدل في جلستها أو لتتحجر ... ألم تكن "ميدوزا" تحجر كلّ ما تقع عليه عينها ... لم لا يتحرك هذا التمثال الجامد أمامي ؟ لما لا يحرك عيني عينيه ... ؟ صحيح ، أنا لا أرى عينيه اللتين يحجبهما سواد نظارته لكنّي أحسّ بهما لا يتحولان عني يحاصراني ويشكّلان أفق انتظار . طوت المجلّة ... لا أقوى على التركيز : هل تختلف ردود فعل الجسم حسب المكان والزمان أم إنّها هي لا تحوّل والجسم واحد أم هو الجسم يتحوّل وطاقة كامنة فيه تظلّ ماثلة تصيب دون انتصاب .. أم .. أنا أهذي ... وعيناه ترمقان كلّ حركة بل إنّهما ترمقان سكوني وتتأملان أعماقي بل أعماق أعماقي وأغوار النفس بل الذات الكامنة فيّ ، ومن حولي هيجان وموار .

أصبحت حركاتها متشنّجة ، وارتسمت بعض خطوط على جبينها الوضاء . وتداخلت الخصلات المصفّفة بنظام محكم ، وأصبح الإعتدال في الجلوس كحركة عداد سيّارة الأجرة يعدلّ حسب المدة الزمنية والمسافة المقطوعة ، ولا عداد ولا أجرة ...

هل ينطق أم هو أخرس قد بلغ لسانه زمن غارات الماغول ؟ هل ينطق أم هو أخرس قد بلغ لسانه زمن كتب الكتاب على السنة الحيوان والصبيان والأشياء وانغرسوا في مداورة دوران الكرة ... الأرضية ؟

هل ينطق أم هو أخرس دارى بالصمت آلاف الكلمات والآيات وكلما يجري وكان جرى في بلد الواق بالأبواق ؟

وأحسّت بشغره يفتح وكأنّ كلمة تنبّس .. آه هل ينطق .. آه .. لا بدّ .. ينطق ... وطفى صوت رخيم يعلن الوصول .. وما إن توقّفت محركات الطائرة حتّى توجّهت مضبّقة إلى هذا الصنم تساعده على القيام وتقوده إلى المدرج وهي تقول مبتسمة : « أرجو أن تكمل العملية بالنجاح فيعود إليك بصرك فنتعم بجمال الكون وجمال الرحلة بين كتيبان السحاب ...

أخرجت هذه الفتاة من حقيبتها امرأة صغيرة فنظرت وتأملت صورتها فيها فإذا هي لم تعد هي .. المرأة أم .. أنا ؟ أنا أم المرأة .. وتشنّجت حركتها فانزلقت المرأة من كفّها فسقطت فكأنّ بها شرخا أو شروخا وجرحا أو جروحا وقرحا أو قروحا ... امرأة أم شظايا امرأة تكثّفت ؟

أنا ووجهي والرمل

بقلم : سفيان بن عون

كان يجب أن أبكي ، وضعت وجهي بين كفي ، انهارت الدموع من عينيّ دون أن أشعر ، ومع الدموع سمعت صوتي يخرج من كبدي متعقنا ، سمعت صوتي كأنه الليل تغرّد في أركانه جثث الموتى ، استغربت هذه الحالة ، استغربت صوتي كيف انفلت من حنجرتي بتلك الحدة ، أمعذب أنا إلى ذلك الحد ؟ أألثني كلماتهم إلى تلك الدرجة التي تحول فيها بكائي إلى نحيب مرّ ؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كان يعلم منذ البداية أن ما مضى من أيامه على صعوبتها والعنت والمكابدة التي كانت فيها فأنها ستبقى أجمل ما مرّ به وكان يعلم منذ البداية أيضا أن ما ينتظره في هذه المتعطفات لن يكون سهلا أبدا لن يكون سهلا ، لكن لم يكن يتصور أن الأيام ستكون قاسية إلى تلك الدرجة ، مفرد أنا والجمع عيون متربصة تخترقني ، تراقبني ، بل تلتهمني تبلّلت يداي بماء العينين أزلت وجهي من كفيّ ، رفعت بصري إلى السماء ، نهضت من مكاني ، درت حول نفسي مرّة أولى ثم ثانية ، ثم ثالثة ، أعجبتني اللعبة ، واصلت ، لكن في النهاية أصابني الدوار ، الجوع يحرقني ، ودموعي استنزفت كل طاقتي ، اتجهت إلى بيت الحمام ، أشعلت النور ، المرأة الآن أمامي وفي الأسفل تحتها مباشرة كانت توجد قطعة بلورية في شكل مستطيل ركبت عرض الحائط وكنت أضع عليها بعضا من حاجاتي ، موسى للحلاقة ، الصابون ، فرشاة الأسنان والمعجون أيضا علبة "شامبو" وعطري ، كنت

شديد الحرص على النظافة ، نظرت إلى وجهي في البُور ، كان شاردا ، أمسكته بيدي ، ضغطت عليه بيدي اليسرى برزت شفتي السفلى إلى الأمام قليلا وكذلك فعلت الشفة العليا وهما على هذا الوضع لاحظت أنهما كوّنتا الرقم صفر قلت أن الصفر منطلق الحياة ولكن كثيرون من لا ينطلقون ، فيلازمون هذا الرقم إلى أن يغادروا الحياة بل قد يغادروها وقد ضيعوا فيها حتى الصفر .

أعجبني وجهي في تلك الوضعية ، أمعنت النظر ثم تركته ، أمسكت هذه المرة بذقني بيدي اليسرى ووضعت يدي اليمنى على أنفي أمسكته ثم قمت بجذب كل جزء في اتجاه معاكس ، كان المنظر مضحكا ، لقد شوّهت وجهي ، لكنني أصبحت مع ذلك مضحكا خاصة وأن عيني لا يزال بهما أثر للدموع ، سخرت مني ، ضحكت بصوت مرتفع ثم انتهيت إلى جزئية بسيطة وهي أنني أسكن في عمارة والساعة الآن قد جاوزت منتصف الليل ومن المؤكد أنني بصوتي هذا سأزعج الجيران ، لكنهم كثيرا ما يقلقون راحتي فلماذا لا أفعل بهم مرة واحدة في حياتي ما يفعلونه بي كل يوم ؟ أهملت مواصلة ضحكي ، بل كنت سأخط برجلي على الأرض كي تتم العملية لكنني تواجعت عسا عجزت عليه احتراماً للقانون وحرصاً على راحة الآخرين وتطبيقاً لمبادئ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فيما يخص حق السكن والتمتع فيه بالراحة والذي يقول : « لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات » . وأنا بفعلتي هذه فأنني سأدخل في مساكن الناس وربما حتى في حياتهم تدخلا تعسفيا وهذا بالتأكيد سيرعّضني لعقاب القانون . توقفت عن الضحك ، انحنيت قليلا حتى أصبح رأسي تحت الحنفية ، إنساب الماء وضعت بعضاً من منظف الشعر في كفي ثم غسلت شعري ووجهي ونزل الماء أسود ...

نظرت إلى وجهي من جديد إنّه هو هو ، لم يتغير فيه شيء لماذا غسلته إذا ، ما دام قد بقي على حاله ؟ نظرت إليه أكثر في المرأة ، حزين هو لا بل فرح ، بل

حزين ، أجل هو حزين أنت يا وجهي تعاني من هؤلاء الذين يحيطون بك ، إنهم يسيئون إليك كثيرا ، لماذا لا يحترمون أي شيء ؟ جففت شعري وكذلك فعلت بوجهي ثم عدت إلى غرفة النوم ، يجب الآن أن أنام ، الواحدة صباحا ، نذعت ملابسني ، بقيت شبه عارث أنزلت في فراشي جذبت اللحاف أغطي به نصفني الأسفل ثم أمرت رجلاي في آخر الأمر تحت الغطاء ، وهكذا يبرزان ، يشآن الهواء ، استقر الوضع ، لا تخمن كثيرا الحياة ، الأصدقاء ، الناس المساكن المدينة ، العالم ، كلهم يحيطون بك وتحيط بهم ولكن في النهاية تعيش وحيدا ، إغمض عينيك وستنام ، أفعل ذلك أغمض عيني ولكن النوم لا يأتي ، أزعجت الغطاء ، ارتديت ملابسني نظرت إلى وجهي في المرأة مرة أخيرة قبل أن أخرج ، أعجبنني الآن بعض الشيء إنه ربما مسرور لأنه سيسافر ولو إلى حين فتحت الباب وخرجت ، نزلت الدرج كانت حواشيه متسخة ، الساعة الآن الواحدة ليلا ووضعا من الزمن إلى أين تذهب ؟



مرهق أنت ما في ذلك شك ، لكن هل أنت وحيد المتعب في هذا العالم ؟ هل تساوي آلامك شيئا أمام آلام الجوع والمرضى والمقهورين ؟ هل تساوي آلامك شيئا أمام امرأة مات زوجها ولم يترك لها شيئا سوى مجموعة من الأطفال ينكدون حياتها ، أو هل تعني جروحك شيئا أمام شاب في مقتبل العمر يحمل قوة المستقبل لكنه تآكل مع مر الأيام وانهارت كل أمانيه لأنه لم يجد عملا ؟ لكن ما شأني هؤلاء ؟ من أنا حتى أحمل هموم الناس ..؟ على أية حال فليذهب كل في طريقه وخيرنا من يستطيع أن يسافر ليجد في نهاية سفره مرفئا يرتاح إليه .

اطمأن باله قليلا لما وصل إلى هذه النتيجة ، لكنه وفي قرارة نفسه لم يكن مقتنعا بما توصل إليه ، لأنه كان يعلم أنه مسؤول بصورة أو بأخرى عما يدور حوله .

... في الخارج كان الطقس حارا نوعا ما ، أين أذهب في هذا الليل ؟ البحر هو الملاذ الوحيد ليدفع عني بعضا من الشر والحر ... نفس من حياة مازال يدب

في الشوارع رغم تأخر الوقت ، الناس يقلقهم الحر ، يهربون من الصناديق التي يسكنونها ، يشعرون فيها بالإختناق ، ملجؤهم البحر ، هذا الفضاء الممتد الواسع .
السيّاح في الصّيف يصبحون شركاءنا في المدينة ، يهربون من حضارتهم وأنوارهم ومدنهم البلّوريّة إلى بدائيتنا ، يعشقون هذه البساطة التي تلفّ الحياة هنا أو هكذا يتصوّرون ، لمحت سائحين ، رجل وامرأة ، تدلّ ملامحهما على أنّهما فرنسيّان تأكّد لي ذلك أكثر لما اقتربت منهما فهما يتناجيان ، استمعت له وهو أنّه يحبّها ثمّ لثم شفّيتها بعمق ، هكذا أمام الجميع ، استظرفت المشهد.. أنتم البسطاء ولسنا نحن !...

العرق نزل من على جبيني شقّ على جانب وجهي طريقا ... واصلت السير ، شابان راق لهما مشهد الأجنبيّين توجّها إليهما وبدأهما أحدهما بالكلام ... أمّا أنا فقد فتنتني الفرنسيّة ... جسد صلب ورخو في نفس الوقت ، تصوّرتني أنا وهي في غرفة لوحدا ، أعربها شيئا فشيئا وهي تهتزّ لوقع أصابعي على جسدها سأحتلّ كلّ موقع فيه ... سأخطم أسنورتها وسأجعلها تدين لكلّ نفس من أنفاسي بكلّ وجودها ... حملني الخيال بعيدا ، طاف بي ثمّ ألقاني على شاطئ البحر ، نزعت حذائي وبللت قدمي ثمّ عدت إلى الرّمل ، هبّت النسمات ، دغدغت جسدي ومسحت وجنتي ، وبدأ القلب يتناثر بعيدا ، الموج البسيط الهادئ كان يحدث موسيقى إرتاحت لها نفسي تهت في عالم أزرق ، عادت إلى ذهني صورة المرأة ، حاولت طردها لكنّي لم أستطع ... البحر ، لست أدري لماذا أشعر أمامه أنّي طفل صغير ، هو يذكّرني دائما بطفولتي ، إنّها زمن سرقة الزّمن... هل أتذكّر في طفولتي عمري الذي تاه متني ؟ جاءني من خلفي الخيال ، التفت ورائي فوجدت سحرا يعانق الأرض ، إقترب متني ، هي لم تكن عربيّة ، إقتربت متني أكثر وعندما أصبحت على جانبي وفوق رأسي قماما ، تكلمت ، يبدو أنّها نطقت بالإسبانيّة لم أفهم ما قالت ، عبّرت لها عن استغرابي ، فهمت بإشارتي ، نطقت إثر ذلك كلمات بالّلغة الأنقليزيّة ، سألتني إن كنت أعرف الكلام بهذه اللّغة فأجبته بنعم طويلة وأنا سعيد بذلك ، لأنّما تعلّمته لن يذهب سدى ولأنّ هذه المرأة

ستعلم أني أجيد اللغة الأنقليزيّة وقد تُعجب بي بذلك جلست إلى جانبي وكأنّها تعرفني منذ سنوات أيّ عالم أنت وأيه طريق سيفتح لي الآن ؟ لا أخفي سعادتي بجلوسها إلى جانبي ...

قالت لي أن اسمها هو "ماريا" وهي إسبانيّة المولد أو أندلسيّة كما نحن كنّا نقول قديما ، قالت لي أنّها عرفت غرناطة ومذ زارت ، قصر الحمراء ، أدركت أيّ حضارة قامت هناك وأيّ عظمة للرجال الذين أنجزوها ، إلثفت إليّ ثمّ سألتني : لماذا أنت هنا في مثل هذا الليل ؟ تجلس على الشاطئ وحيدا ، إن الغربة بادية في عينيك ، نظرت إلى عينيها ثمّ نزل النظر إلى فخذيهما ، مكوّران جميلان ، بهما بياض يميل إلى الحمرة ، انه أثر الشمس على جسدها .

حفرت أمامي حفرة وضعت فيها ساقيّ ثمّ أهلت عليهما الرّمل ، هذا الوضع يشعرنني بالراحة ، هي اقتربت منّي أكثر شعرت بأنفاسها قريبة من وجهي ، حرارة جسدها بدأت تلمع جسدي الباردة ، أشعر أنّ أبواب المغامرة بدأت تنفتح ، أفي حاجة أنا إلى سفر جديد ؟ بعض من الفرح بدأ يتسرّب إلى شرايبيني مدّت إليّ يدها طلبت منّي أن أنهض ، نهضت ، إنها تريد أن تسير معك على الشاطئ أيّ قوّة هذه التي تملأ قلبك الآن ، لقد أدخلت يدها تحت ذراعي وأمالت رأسها على كتفي قليلا وطلبت منّي أن نسير ، وافقت ، في الواقع وجدت نفسي مضطرا على الموافقة ، فأننا لم أعد أملك نفسي الآن أو لم أعد أملك سيطرة عليها ...

سألتني مرّة أخرى عن سبب وجودي وحيدا على الشاطئ ، هذه المرّة أصرّت ، طلبت الإجابة ، قلت لها أنّي أنا نفسي لا أعرف السبب ، فقط أحسست بقلق ما ، بألم ما فأردت أن أزيحه عن نفسي ، وطلبت البحر عليّ فيه أجد ميلادا ، قالت إنّها تحسّ هنا بعض الغربة من حين لآخر ، خاصّة في الليل وعندما تنفرد بذاتها ، صوت بداخلي أجاب "إن الغربة مرض يبتلع الرجال ، يجعل منهم أطفالا لا يعرفون كيف يتصرّفون ولا كيف يتعاملون مع العالم ومع من يحيط بهم ومع

أنفسهم بالتحديد، لكن هل يكفي الواحد منا أن يغادر الوطن حتى يكون غريبا ؟
ألا يمكن أن تحمل الغربة في ذات الإنسان وهو لم يفارق أهله وأقاربه ، ثم أليست
تلك أشد قسوة وامتهانا ؟

مشيت وهي على طول الشاطئ ، ابتعدنا كثيرا غصنا في ظلمة الساحل ، ما
عدنا نرى أحدا ، أصوات البشر كانت تأتينا من بعيد ، من بعيد جدا ، صوت الماء
وهو يتكسر ، هو ما كان واضحا وقريبا من الأذان ، هي غنت لنا إسبانيا رائقا
قالت إنها أغنية حب ، أسمعتها أغنية فيروز تتحدث عن البحر والقمر والحب
وقلت لها إنها بعض من دمي المحترق منذ سنين قالت أنها لم تفهم كلامي ولكنها
أحست بنبرات الحزن فيه ، توقفت عن السير ، توقفت ، تركت ذراعي ، ابتعدت
عني قليلا ثم نزعت كل ملابسها ، وهي الآن عارية تماما ، هي الجنة تنفتح أبوابها
على نيران الجحيم ، لم تنتظر طويلا ، جرت إلى الماء ، إنزلت في البحر امتزج
الجسدان ، جاني صوتها يناديني ، نادتنى طويلا لم أستطع النهوض ، أنا لا
أحب السباحة ليلا ، استسلمت للرحل وقعت بصري إلى السماء ، وبقيت أقرب
النجوم ، "مارسا" ربما شعرت بخوفي ، خرجت إلى قطرات الماء تغازل جسدها
بعد ، لم تمهلني طويلا ، ارتقت فوق جسدي دفعتها عني ثم علوتها وتهدت في
أروقة الزمن ، أشعر أنني الآن أغيب عن هذا الوجود بل أنا في أعماق أعماقه ،
كانت أنفاسها حارقة ، وملوحة ماء البحر لازالت عالقة بجسدها ، شفتاها تقطران
لذة ، أمتصهما وتذويان في فمي ، أطبقت السماء على الأرض وكدت أدرك
أقصى نقطة في هذا الكون ، شرع الجسد في ملئ كل فراغاته ، عيناى إلتقتا
عيناه طويلا ، أقبلت السحب على الشاطئ ، فجأة ، أحسست بانقباض في
صدري ، أحسست أن الأبواب تنغلق في وجهي ، دفعت الإسبانية عني بقوة ،
صرخت ، دفعتها مرة أخرى ، أدركت في أي موقع أنا الآن ، نهضت والرمال
تغطي كثيرا مني ، مللت نفسي ودون أن ألتفت إليها شرعت أجري ... والفجر
مازال بعيدا .

هموم الرجل المتعب

قصة قصيرة

بقلم: مختار المومني

أنا أيوب صابر .

هذا هو اسمي الحقيقي المدون في بطاقة هويتي .. ربما حمل هذا الاسم غيري .. لا يهم ... فمنذ كنت فكرة شريرة في ذهني رجل وامرأة وأنا ألح عليهما ألا يدخلاني التجربة ، وأدخلاني .

خمسون خريفا والفكرة تسعى على ساقين هزيلتين متعبتين . أعمل بناء .. كادح أعطيت من عمري ثلاثين عاما .. دماي اختلطت بذرات تراب الجبر ، والإسمنت ... عشقت مهنتي جد الجنون ووجوه العمال والأصدقاء . ساعة الضيق أنفُس عن نفسي بأية من الذكر الحكيم .. وأحيانا أردد مثلا شعبيا أو حكمة قديمة . تعرفني الشمس ، والصفالات ، والأجروذي الغلطات . لا أملك رصيда في بنك ولا شبرا من أرض أبني عليه منزلا ، مصاريف العائلة كثيرة وهمومي أكثر وطموحاتي خاسرة .

من مصاريفي دفع إيجار المنزل المتداعي الذي أسكنه . خلاص معلوم الماء والكهرباء ، وخلاص أجرة الساعات الإضافية التي يدرسها أطفالي في المدرسة . بالإضافة إلى مصاريف العائلة من مؤونة وكساء . ومن همومي عجزي الدائم عن تحقيق المعادلة المستحيلة بين دخلي المتواضع ومصاريفي الكثيرة . ومن طموحاتي أن أمتلك منزلا وأحج إلى بيت الله الحرام .

أنا أيوب صابر .

متزوج من امرأة اسمها حياة .. قنوعة .. طيبة .. صابرة .. قبل أن أتزوجها منيتها بالجنة .. وعندما تزوجتها صحت من الحلم الجميل ووجدت نفسها تجري وراء السراب .

حياة .. عيناها بلون زرقة البحر .. جدائلها بطول سعف نخل الجريرد تقول في
أيام الصيف .

- يا أيوب احذر ضربة الشمس

وفي أيام الشتاء وأنا أستعد للخروج إلى العمل

- خذ كفايتك من الطعام ودثّر نفسك جيّدا .. لا يقهر البرد سوى الطعام الساخن
والكساء الجيّد .

أقول لها :

- معظفي قدرث

تقول لي :

- هذا الشهر وقرّ ثمن رطلين من اللحم واشتر معظفا من سوق الثياب المستعملة .

أنا أيوب صابر .

في قاع هذه المدينة الصّاحبة أضعت أجمل سنوات عمري وفقدت براءتي . بين
شوارعها المتآكلة ... المتهالكة .. وانكسرت جمرتني على أبوابها الموصدة .. وانغحت

<http://Archivebeta.org>

صورتني على واجهات مغاراتها المزيقة
في البيت القديم الذي أسكنه شرخ كبير في أحد جدرانها . رسمته أكثر من مرة
بالإسمنت والتراب .. الشرخ كان يتسع بعد كلّ عملية ترميم . أنا الذي قضيت ثلاثين
سنة أتشعبط فوق الصقالات وأتنفّس غبار الجير والإسمنت أحرار في تفسير هذا الشرخ
الذي عشت فيه العناكب والعقارب .

في النهار أظلم موزعا بين تعب العمل وفداحة الخسارة في خطواتي احتراق .

في جراحي ثمر اليأس

في فمي طعم الغثيان

في عيني شهوة الأمل المستحيل

ألتحم مع أصحاب البدلات الزرقاء .. معهم أتحدى ضعفي وإملاقي وعجزتي ..
معهم أدوس على آلامي وأحطم الحواجز ... نأكل خبزنا مغموسا في زيت الصوجا

والهريسة ونحن نحلم بالفرح يأتي على بغل أعرج .
في الليل يزورني طيف أمي وهي تمطرني بدعواتها الصالحة
- إن شاء الله صحتك حديد .. لا تكل .. لا تبعد

مسكينة والدتي ماتت ولم تعرف أن الحديد يبيده الصديد أتذكر شقاوة
طفولتي وأنا أخوض في المستنقعات .. أراها تشعل النار في ليل الشتاء البارد ..
أرى وجهها يتمزق ألما وهي تشدني إلى صدرها المترهل الحنون . تضمني إليها بقوة
.. تجوس يداي في شعرها الأشيب القصير وأنا أنصت إلى عواء الرياح وهي تجول
في البرية أو إلى نقر المطر على سطح بيتنا الواطئ .

أنا أيوب صابر

حينما أتأمل وضعي الآن أجد أنني لم أغتم شيئا من صراعي مع الحياة . ربما
هو سوء الحظ . ربما لعنادي ومكابرتي . كما أنني لم أكن مهزوما إذ استطعت رغم
قساوة ظروفي أن أظل رجلا لم يفقد احترامه لنفسه .. تركنت يداي .. غزت
الشعيرات البيضاء رأسي .. تسلل المشيب إلى قلبي .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

رفاق في العمل لاحظوا علام الشroud ترك آثارها على وجهي وعيني .. بعضهم
نصحتني بعدم تناول الشاي والقهوة .

تسرّيت الحياة وأنا منشغل عن الحاضر بالآتي .. هل تراني أخطأت عندما انشغلت عن
حاضري ؟ هل يخطئ من ينسى نفسه ؟

فأنا لا أذكر متى تزوجت ومتى أنجبت هؤلاء الأطفال السبعة :
- " سبعة وأمهم .. أش يلمهم " .

حياة زوجتي تحلم أن أكون سندبادا أجوب البرور والبحار وأعود محملا بالهدايا
والدولار . وثارة أخرى تحلم أن أكون بطلا أسطوريا أخطئ السدود وأكسر القيود
ويبد هرقلة أعجن الجبال فأحليها بحارا زرقاء وخضراء وحمراء من الياقوت والزبرجد
والمرجان وأنا رجل يبحث عن شيء لا يجده .. يبحث عن مستحيل لا يحققه . مروعة

هي العجلة التي تسحقني .. أي .. صدري كله ينتقبض ويد غليظة أحسها ولا أراها تخفني .. قدرتي أن أظلّ مربوطاً إلى هذه العجلة مثل بغل حرون ..

لكم أكره هذه المدينة .. هذه المدينة التي تنام بعيون مفتوحة وتصحو على هدبر البواخر وصفير القطارات ولغط السماسرة وتكتكة الآلات الحاسبة . هذه المدينة قتلت في نفسي كل شيء جميل .. قتلت براءتي .. وأدت طموحي .. هذه المدينة أربكتني بأسئلة لم أجد لها حلاً .

ومن الأسئلة التي ظلت معلقة ولم أجد لها حلاً .
- كيف أصبح " الفالح " ابن عمي أكبر ثري في المدينة بعد أن كان تاجر خردوات يدفع عربة أمامه ويطوف بها في الحواري والأزقة صائحا
- يا اللي عندك دبابز للبيع ... صباط للبيع .

ولماذا لم أصبح ثرياً مثله .. رغم أنني أفني نفسي في الشغل . أنا لأقول ذلك حسداً ولكنني لم أجد مبرراً لثرائه السريع .
- وجارنا الفاضل ما الذي دفعه لأن يصبح قواداً لزوجته شريفة رغم أنه يعمل تاجراً في سوق ليبيا والريح لديه وفير .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لكم أكرهها هذه المدينة التي جعلتني أدور في حلقة مفرغة مثل " جمل بروطة " .
بروي عطش غيره ويظلّ السّاقى المحروم . لكم أكرهها هذه المدينة التي تصادمت معها منذ أول يوم نزلت بها ، أذكر أنني قدمت إليها ذات يوم بعيد منذ أكثر من عشرين سنة بعد أن ضاقت بي سبل العيش في قريتي فخرجت أضرب في الأرض أسعى في مناكبها لعلّي أوفق إلى عمل أرزق منه بلغت المدينة مع الليل فلم أجد مأوى فنمت في حديقة عمومية على كرسي حجري ، وعندما طلع النهار عاودت سعبي في طلب الرزق فظفت بالمصانع والورشات ، وعرضت نفسي على أصحابها ورضيت أن يكون أجري ما يكفيني لطعام يومي حتى تهرأت قدماي ولم أجد من يستخدمني ولو بأجر زهيد . وضاعت منّي في سبيل هذا البحث أيام عديدة حتى جعلت وساءت حالتي فقصدت محطة القطار وقلت لعلّي أجد ما أحمله من متاع المسافرين فأتقاضى عنه

أجرا آكل به . واستقام أمرِي على هذ الحال أَيْامَا ولكن فاجأني رجل البوليس ذات يوم وأنا أشتغل فاستاقني إلى المخفر لأُتَي أشتغل حمَلا بدون رخصة . وحكم عليّ القاضي بغرامة جسيمة لم أستطع سدادها فحبسوني أَيْامَا عديدة وخرجت من السّجن بعد ذلك أعادوا البحث عن عمل .. أيّ عمل آكل منه لقمته قلم أجد ، وأدركني الجوع فبسطت يدي إلى النَّاس أستطعمهم متاديا :
- يا كريم متاع الله .. حويجة لرَبِّي .

فضبطني شرطيّ متلبّسا بجريمة التسوُّك في الطريق العام وبعثوا بي مرّة أخرى إلى القاضي فحبسني مدّة بعد أن أخذ تعهّدا في عدم العودة للتسوُّك وخرجت من السّجن هذه المرّة أيضا أعادوا البحث عن عمل ، فعطف عليّ تاجر فاكهة فسلمني عربة صغيرة مملوءة إِبَاصا وبطّيخا وتَفَاحا . أخذت أجوب شوارع المدينة وأنا أتغنّي بحماس بضاعتي شامخ الأنف .. مرفوع الرأس .
- يا التفّاح الّلي يفوح ويردّ الرّوح للرّوح
- يا بوب عنيق يا لنجاص

غير أنّ البوليس اعترضني وقال لي : إلى المخفر مرّة أخرى بعد أن حجز بضاعتي مع عربتها . وقدّمت إلى المحكمة بتهمة أنّي " بائع متجوِّك بدون رخصة " وحكم عليّ القاضي هذه المرّة بغرامة تحوَّكت كالمعتاد إلى حبس .

وفي السّجن تعرّكت على مقاول بناء يقضي عقوبة بالسّجن بتهمة الغش في مواد البناء وإلحاق الضرر بالمصلحة العامّة فحكيت له قصّتي فعطف عليّ وأمرني أن أتوجّه إلى أحد معارفه فور خروجي من السّجن ليشغلني عنده .
ومنذ يوم خروجي من السّجن إلى يومنا هذا وأنا أعمل عنده .

أنهض في غيش الفجر وأعود عند الغروب .. أسير متعب القامة .. محني الهامة .. وأنا أمني النّفس بجنّة عرضها السّماوات والأرض وإحساس غريب ينمو داخلي بأنّي رجل حيّ مَيّت .. مَيّت حيّ .